فكر وفن ١٠٥



الهجرة واللجوء

اصدارات معهد غوته

الافتتاحية

نادرا ما كانت هيئة تحرير «فكر وفن» فخورة بعملها كما هي الحال مع هذا العدد الجديد. فحين اخترنا في صيف عام ٢٠١٥ «الهجرة واللجوء» كملف لهذا العدد (صيف ٢٠١٦) كان واضحا لنا أنه سيصبح موضوع القرن. بيد أنه لم يكن واضحا لنا، من جهة أخرى، كيف ستتطور أزمة اللاجئين من وقتها إلى يومنا هذا. في الوقت نفسه كانت ثمة مخاطرة لمجلة «بطيئة» تصدر مرتين في السنة أن تتناول موضوعا سريعا كملف اللاجئين يتطور في كل لحظة. بمعنى أنها قد تجد نفسها متأخرة ولن تأتي بجديد لو تناولته لأن الآخرين ربما كانوا قد ألقوا المزيد من الأضواء على كل جوانب الموضوع.

الهجرة واللجوء

وبالفعل كان علينا في هيئة التحرير أن نتساءل فيما إذا كان هناك ثمة ما يقال في ملف اللاجئين بعد أن يكون الآخرون قد أشبعوه بحثا وتحليلا. وهل هناك أصوات جديدة يمكن أن نقدمها في هذا العدد بعد كل ما كتب وقيل عن موضوع الهجرة واللجوء؟. وبالفعل كان الأمر مفاجئا حتى لنا نحن في هيئة تحرير «فكر وفن». إذ وجدنا أن هناك الكثير مما لم يطرح بعد في هذا الموضوع. كما اكتشفنا أن العديد من الأصوات المهمة لم تقدم آراءها وتجاربها بهذا الخصوص بعد. هل تعرفون بختيار علي على سبيل المثال؟ فهذا الكاتب الكردي العراقي الكبير، الذي يعتبر نجما في بلاده، يعيش في مدينة كولونيا منذ سنوات دون أن يلتفت إليه الجمهور الألماني.

ويشرح بختيار علي في هذا العدد، وبطريقة لا يستطيع أن يجاريه فيها أحد، ماذا يعني للاجئ والمجتمع الذي يلجأ إليه مفهوم «تغيير المكان» أو «اختفاء المكان» حسب مفهومه. أي ماذا يعني أن تكون هاربا على الصعيدين الداخلي والخارجي، أو بكلمات الكاتب التحول من «الخوف من الظاهر» إلى «الخوف من الكامن». كما نتعلم من بختيار علي أن مفهوم «اللاجئ» هو شعور داخلي وأن هذا الشعور يبقى كامنا في الإنسان حتى لو أنه كف عن أن يكون لاجئا منذ وقت طويل. هذه الحالة يعرفها الألمان أيضا من خلال تاريخهم الخاص، كما تصف بربارا ليمان في مقالتها في هذا العدد.

ويساهم في ملف هذا العدد كتاب ألمان آخرون بأسماء قد تبدو غريبة أيضا مقدمين تجارب مختلفة عن «الهجرة» و «اللجوء» والمكان و «الغربة» كـ شتيفن أولي و رشا خياط وعالم غرابوفاك و ستانيسواف ستراسبورغر. وحتى لو شعر هؤلاء الكتاب بأنهم ألمان، ربما يأتي شخص ما ويصنفهم على أنهم غرباء أو ربما مختلفون عنا (الألمان) بطريقة أو بأخرى وذلك اعتمادا على أسمائهم. وبمقدور المرء، كما يصف شتيفن أولي في مقالته «مع الأسف كلنا عنصريون»، أن يصنف هذا الأمر كتمهيد للعنصرية أو ربما العنصرية بذاتها.

ومن خلال هذا الطرح يصبح الأمر صعبا جدا على اللاجئين الجدد ومدى تقبل المجتمع الألماني لهم في المستقبل. بمعنى ألا يشعروا بأنهم غرباء على هذا المجتمع رغم الجهود التي يبذلونها للاندماج فيه. وإذا تبنينا مقولة بختيار علي حول «جماليات عدم الاندماج» فإن على اللاجئ ألا يقدم عليه (الاندماج) بأي ثمن. „فالاندماج الكامل في البيئة أو الانصهار السلبي في البوتقة الاجتماعية يقضي على المسافة النقدية الضرورية بين الكائن الإنساني والمحيط الاجتماعي ـ السياسي"، يقول الكاتب.

والتصور السائد عن الفردوس الغربي ما هو إلا صورة مخادعة و „تصور غربي بحت لحكاية الهجرة"، كما يرى بختيار علي في مقالته. وبالرغم من ذلك تبقى هذه الصورة الفردوسية عن أوروبا بمثابة طوق نجاة وأمل للكثيرين الذين يحاولون الوصول إليها بأي ثمن. وهذا ما يشرحه ألفريد هاكنسبيرغر في مقالته في هذا العدد حول الوضع في مدينة طنجة المغربية وكيف يحاول اللاجئون مرات ومرات للوصول إلى أوروبا. كما تصف المصورة والصحفية السورية نور كلزي في شهادتها «الرحلة المجنونة، المخاطرة الأخيرة» المخاطر التي تعرضت لها في محاولتها الوصول إلى ألمانيا عن طريق ما كان يعرف بـ «طريق البلقان».

وبالإضافة إلى هذه المقالة تجدون في هذا العدد شهادات لصحفيتين سوريتين وصلتا مؤخرا إلى ألمانيا وهما ضحى حسن و روشاك أحمد. كذلك يقدم الكاتب الليبي محمد الأصفر تجربته مع اللجوء إلى ألمانيا.

نحن سعداء جدا بأن أعددنا لكم هذا العدد الخاص من «فكر وفن» وسنسعد أكثر لو نال إعجابكم وتفاعلتم مع مضمونه.

رئيس تحرير مجلة «فكر وفن»

■ قد نصبح غرباء، وإن لم نكن كذلك بالمرة. يحدث هذا حين يعتبرنا الآخرون غرباء على الدوام. ولكن، ماذا سيحدث إذا ما انضم إلى المشهد فوج جديد من الغرباء الحقيقيين؟ بعد أن اعتبرنا العنصريون غرباء على غير طبيعتنا قد نتطبع نحن أيضا بقدر من العنصرية تجاه أولئك الغرباء الجدد. حول جدلية العنصرية في ألمانيا كبلد هجرة.

مع الأسف كلنا عنصريون!

حين نصبح غرباء على أنفسنا وعلى الآخرين!

شتيفن أولي STEVEN UHLY

أنا أنتمي إلى الألمان العنيدين. ومهما تكررت تساؤلات الآخرين بشأن موطني الأصلي، أو كانت أكثر جرأة واستقصت عن موطن والديّ الأصلي، فإنني أجيب إجابة واحدة لا تتغير: أنا من كولونيا. تعلّمت على مدى خمسة عشر عاما تقريبا ألا أعقّب بأكثر من ابتسامة على تلك التعليقات التي تحمل في طياتها معنى „لا تبدو كولونياً بالمرة".

تجاربي الشخصية مع العنصرية

أبليت بلاء حسنا في هذا الصدد حتى الآن. بل إنني تغلبت أيضا على خجلي من التعامل علنا مع غيري من الألمان ممن لا يشبهون الألمان. فقد اكتسبت تلك العلة خلال فترة طفولتي التي قضيتها في كولونيا، وتعد بلا شك نوعا من أنواع العنصرية القائمة على الاجتناب. نبعت تلك النزعة من تجاربي السلبية مع العنصريين.

لم أكن آنذاك أكثر من ابن عامل أجنبي في نظر الناس، أي أن وضعي الاجتماعي كان متدنيا إلى حد بعيد. فكنت أغضب وأشعر بالإهانة، لأنني لست ابنا لعامل أجنبي، بل أنتمي إلى حيثما جئت إلى العالم، وهذا لم يتغير أبداً. أعلم الآن أن هذا ما يُطلَق عليه اسم "Ius Solis„ أي «حق الإقليم» أو «حق الميلاد». وهو القانون الوحيد الذي يخص الأطفال حيثما كانوا: حيثما ولدوا.

نبعت عنصريتي بطبيعة الحال من سخطي؛ كنت أرفض الانتماء للطبقة السفلى، أردت أن أنتمي إلى البراهمة. وربما أحرص لهذا السبب على التحدث بلغة ألمانية صحيحة، لأوقف الآخر عند حده ما أن أفتح فمي وأتحدث. وقد لاحظت أن الكثيرين من أمثالي، ممن لا يشبهون الألمان «التقليديين»، يتّبعون تلك الإستراتيجية. وقد أثبتت نجاحها بالفعل في معظم الحيان.وينبغي التعليق بعدم اهتمام على زلات أولئك الذين يثنون علينا مهاراتنا اللغوية الرائعة؛ إلا أن أعداد هؤلاء تضاءلت على مر العقود، وهذه علامة جيدة.

انحرفت الأمور عن مسارها سريعا في الآونة الأخيرة، وأسوأ ما في الأمر أنني لا أعرف إلى أين تأخذنا. كانت معالم الطريق واضحة في فترة طفولتي: هناك النازيون القدامى، الذين كانوا يضايقونني كلما مروا بي، إلا أنهم كانوا يحرصون على عدم وجود شهود عليهم، كما لم يلجئوا إلى العنف. وكان هناك من هم في نفس سني، وهؤلاء كانوا يتمتعون بقدر كاف من السذاجة



لاجئون سوريون أمام نزل يقيمون فيه، ولاية بافاريا
Photo: Achim Wagner

لتكرار شعارات الكبار. أولئك كان من الصعب، وأحيانا من المستحيل، تجاهلهم. وكانت هناك الجماهير المشحونة، وهؤلاء لم تكن لديهم دراية بكيفية التعامل مع أمثالي من دون التطرق إلى العنصرية. إنه شعور بالغربة يحاصرني من جميع الجوانب كالحشوات القطنية، وربما يكون الأكثر فتكا على الإطلاق، لأنني ظللت لفترة طويلة لا أعرف من المسؤول عن تلك المشكلة: هل هو أنا أم الآخرين؟

توابع الحرب العالمية

كانت ألمانيا تعاني من العزلة لحين قيام الوحدة. وسواء في ألمانيا الشرقية أو في الغربية، كانت العنصرية من المحظورات في أعقاب محرقة اليهود ولشعور ألمانيا بالخزي إزائها بعد هزيمتها الساحقة في الحرب العالمية الثانية. وجاء تطبيق هذا الحظر في المانيا الشرقية بشكل مطلق. فلم يكن هناك صلات تذكر مع العمالة الأجنبية وعاش الفاشيون، وفقا للرواية الرسمية، في ألمانيا الغربية، بينما كانت ألمانيا الشرقية الاشتراكية تسعى جاهدة لخلق إنسان جديد .وبالتالي لم تكن هناك مواجهات عملية مع الماضي.

وكانت العنصرية من المحظورات في ألمانيا الغربية أيضا، إلا أن المجتمع هناك اتبع إستراتيجية مختلفة للعودة إلى وضع الطبيعي مرة أخرى. وتلك الإستراتيجية تمثَّلت بشكل عام في مبدأ: التعلُّم من أخطاء الماضي. ما فعله الأمريكان عقب الحرب مباشرة من إجبار السكان المحيطين بالمعتقلات النازية على رؤيتها من الداخل، تحوَّل تدريجيا إلى توجه ثقافي لمجتمع بأكمله. وتحت شعار التعويض، التزمت ألمانيا بدفع مبالغ مالية لإسرائيل، وهي السابقة الأولى من نوعها في التاريخ القضائي. لم يحدث من قبل أن تم دفع تعويضات لدولة لم تتضرر في المقام الأول لأنها لم تكن قائمة كدولة إبان محارق اليهود ولكون ضحاياها من الأفراد. وحين انتهت أخيرا فترة الخمسينيات الكئيبة، بدأت مواجهة آخذة في الاحتدام مع العهد النازي.

وكل ما شاع في هذا الإطار من شعور بالذنب وتنوير وتعويض كان مدفوعا برغبة قوية لدى ألمانيا في استرجاع عضويتها الكاملة في المجتمع الدولي. طالما كانت مسألة استرجاع الأوضاع الطبيعية من سرديات الألمان الكبرى، وظلت هكذا حتى وقتنا هذا، لاسيما منذ سقوط جدار برلين وإعادة التوحيد. إلا أن المشكلة الكامنة في السعي إلى استرجاع الأوضاع الطبيعية، تمثَّلت في ظن الألمان أن بإمكانهم طي الصفحة النازية البغيضة بما تحويه من إبادات جماعية بعد الانتهاء من مهمتهم في التغلب على الماضي. وبدأ هذا التوجُّه عقب انتهاء الحرب مباشرة وظل قائما حتى يومنا هذا. وساهم هذا التوجه في صياغة الوعي التاريخي للعديد من الألمان.

على هذا النحو، لم يكن بالإمكان التغلب فعليا على العنصرية في ألمانيا الغربية أيضا. وهو ما اتضح بالفعل من خلال أسلوب التعامل مع العمالة المهاجرة. حينما عزف أولئك العمَّال عن العودة إلى مواطنهم الأصلية بعد انتهاء مهمتهم، قَبِلَ الألمان بوجودهم على مضض باعتبارهم ضيوفا دائمين، وبقى الأمر على هذا الحال لفترة من الوقت. وحتى بداية القرن الـ ٢١ زعم بعض السياسيين البارزين أن ألمانيا ليست بلدا مستقبلا للهجرة على الرغم من كونها كذلك بحكم الواقع القائم على مدى نصف قرن مضى.

العنصرية الإيجابية والسلبية

ويعود هذا العماء لعدة الأسباب، على رأسها حظر العنصرية القائمة بالفعل في المجتمع. وإن ما أدى في ألمانيا الشرقية إلى تعمية كاملة، أثار في ألمانيا الغربية، ذات الضمير المعذَّب، حالة عامة من عدم اليقين والحيرة. فشعر الكثيرون بعدم الراحة في وجود مواطنين آخرين ذوي مظهر أجنبي، على الرغم من كونهم ألمان في حقيقة الأمر، وذلك لأنهم لم تكن لديهم دراية بكيفية التصرف على نحو غير عنصري. كان معظمهم يتصنَّع الحرج بأن يتجاهلني بكل بساطة. مما أسفر في كثير من الأحيان عن تواصل خال من الكلمات والنظرات في المحلات التجارية على سبيل المثال.

وثارت في الثمانينيات ردود أفعال عكسية فريدة من نوعها. فكان من الوارد أن أكون جالسا في شرفة إحدى مقاهي بونّ ليأتي شخص فجأة ويجلس معي ويحدثني بحماس عن روعة الأتراك. أو أن يبتسم في وجهي بجرأة شديدة أشخاص غرباء عني تماما، وكأنهم يريدون أن يقولوا لي: إنه لمن الجيد أنك بيننا. وأصبحتُ في الوقت الحاضر أتعرض للكثير من هذه المواقف. لم أعرف قط كيف يُفتَرض بي التعليق على ذلك، كثيرا ما كنت أحدق إليهم في ذهول ويساورني القلق ما إن كانت نظرتي قد أعطت انطباعا وديا وحوَّلت عنصريا إيجابيا إلى عنصري سلبي.

أصيب الألمان بصدمة إزاء موجة الهجمات المعادية للأجانب التي اندلعت بعد سنوات قليلة من إعادة توحيد ألمانيا، فقد ظنوا أنهم تغلبوا على العنصرية. إلا أن أمثالي شعروا من جهة أخرى بارتياح كبير لأن الحقيقة المنكرة قد تجلَّت في نهاية المطاف وفي السنوات التالية لاحظت كيف تحرر الناس من خلال السلاسل الضوئية وأشكال التعبير عن التضامن من السيف المسلط على أعناقهم والمتمثِّل في اعتبارهم جميعا معادين للأجانب. ومن ثم هدأت ردود أفعال الجماهير. إلا أنه ما لبث أن حظيت العنصرية بالقبول مرة أخرى، فأصبح للعنصريين وجود في المجالس التشريعية المحلية ومجالس المدينة وجميعها أمور محزنة إلى أقصى حد. إلا أنهم سلَّطوا في الوقت نفسه الضوء على العنصرية، وهو ما صب في مصلحة أولئك الذين شككوا في إدراكهم (لتلك العنصرية القائمة والتي لا يعترف بها الآخرون).

وهكذا اندمجت في المجتمع بعد أن أمضيت ثلاثين عاما في قوقعتي المتوارية. أصبح البائعون والصرَّافون يتطلعون إليّ،

والناس في الأماكن العامة يفترضون بداية أنني أجيد التحدث باللغة المحلية. حتى أنني كدت أنسى لفترة من الزمان أنني لست ألمانيا حقيقيا في واقع الأمر.

حتى الآن.

في الوقت الذي يتابع فيه الألمان الآخرون الأخبار بقلق، فيلجئون إما للخوف من الإرهابيين أو من مغتصبي النساء أو مفسدي الثقافة أو النفعيين أو ناقلي الأمراض أو من انهيار الاتحاد الأوروبي جراء أزمة اللاجئين، أسعى دوما إلى تقييم الأحداث إزاء وضعي ووضع أبنائي في الفضاء العام المجهول، أي في الشارع وفي إطار الحياة اليومية. إلى أي مدى نحن بمأمن إزاء هذه الغوغاء؟ ما مدى قوة الطبقة المتحضرة التي تسيطر على تلك الشخصيات الفظة، التي تهون التطرف، وعلى هؤلاء المحرضين والمختلين الجماعيين، بينما أذهب للتسوق والتنزه، أو يذهب أبنائي إلى المدارس أو يلعبون في الخارج مع أصدقائهم؟

لا أستطيع الإجابة على هذا السؤال، لأنه لم يحدث أي تغيير ظاهري في البيئة المحيطة بي. ولكنني ألحظ أن سلوكي الشخصي لم يعد كالسابق. كنت أتمتَّع في الماضي بجهاز إنذار مبكِّر متأهِّب في حالة أن ظهر أمامي نازيون جدد ذوي ميول عنيفة، فأصبحت الآن أنتبه أيضا إذا ما ظهر في الساحة رجالٌ ذوي ملامح مسلمة. وأتساءل في نفسي، هل سيسحبون أسلحتهم الآن أم سيلقون القنابل ويتحرشون بالنساء؟ فترتفع حالة التأهب لديّ إلى الدرجة „ب"! ويستغرق ذلك بضع ثوانٍ إلى أن تثبت سلمية هؤلاء الوافدين الجدد. إلا أن استجابتي تبقى مشروطة.

الأمر المزعج في هذا الشأن هو أنني أثير نفس الانتباه لدى أشخاص آخرين لكوني ألمانيا لا يشبه الألمان. ولا يمكنني حتى لومهم. بل أتخيل بالأحرى أنني سأثير الشكوك في نفسي، لو صادفت نفسي كشخص غريب في الطريق.

ويبدو أن هذا الخوف الذي اندلع جراء موجات اللاجئين التي اجتاحت البلاد من ناحية، والهجمات الإرهابية للمتطرفين الإسلاميين التي وقعت في المدن الأوروبية الغربية من جهة أخرى، لا يمت بصلة لتلك العنصرية المرضية التي تأسر كارهي الأجانب. فالسمة المميزة للنازيين الجدد تتمثل في أن موقفهم لا يستند إلى مطالب سياسية مشتركة، بل إلى اضطراب نفسي مشترك يجمع بينهم جميعا. يتجهون إلى الخلط بين السبب والنتيجة والنظر إلى الأجانب باعتبارهم السبب في المشكلة، وهو ما يماثل الآلية التقليدية للمحافظة على الذات التي تنصاع إليها اضطرابات أخرى. وأنا متأكد أن هؤلاء الناس يشعرون في حقيقة الأمر بالغربة عن أنفسهم.

عنصرية مأساوية جديدة

أما العنصرية الجديدة، التي سقطت ضحيتها أنا نفسي، فتلك تستند إلى نظام مختلف. يمكننا أن نصفها بالمأسوية لأنها وثيقة الارتباط بأحداث باريس العام الماضي وبتلك التي شهدتها كولونيا ليلة رأس السنة. فعلى الرغم من أن تلك العنصرية تعتمد أيضا على مظهر الأشخاص الخارجي، مثلها مثل العنصرية المرضية، إلا أنها تستند بشكل أساسي إلى أحداث فعلية، وهذا ما يجعلها تستقطب عددا أكبر من ذي قبل، وذلك لأن الطابع العنصري لا يبدو عليها بالمرة. إنها نسخة جديدة من العنصرية المستترة، تظهر في صورة قلق مشروع ومبرر. ولذا من يجرؤ على الوقوف في مواجهتها؟

تتلاشى الحدود في هذا الصدد من نواح عدة. فكل من إرهابيي الدولة الإسلامية واللاجئين المغتصبين ينتمي إلى محيط الثقافة الإسلامية. فيظهر الإسلام كعامل مشترك لمختلف الشرور، وتتدفق في هذا الصدد تيارات عدائية كثيرة، وهو ما يجعل الفوارق بين النازيين الجدد ومناهضي الأسلمة و«المواطنين القلقين» معرضة لخطر الزوال.

ولا يسعنا أن ننسى أن التغطية الإعلامية للأحداث المثيرة ساهمت بشكل كبير في بزوغ تلك العنصرية المأسوية. فمعظمنا لم يعايش تلك التجارب بنفسه، ومن المعروف أن العنصرية المرضية تتجلى بصفة خاصة في تلك المناطق التي تقل فيها أعداد الأجانب.

تتيح لنا التغطية الإعلامية الفرصة للمشاركة في الأحداث التي تجري في بيئتنا المباشرة، في بلادنا، وتبقى على الرغم من ذلك محجوبة عنَّا. لم يسبق لي أن رأيت إرهابيين من الدولة الإسلامية، أو شهدت مذابح، ولم أضطر لمشاهدة تحرش مواطنين من شمال أفريقيا بنساء ألمانيات. إلا أن هذا بالتحديد ما يشعل خوفي، اقتران التغطية الإعلامية الشاملة والمطلقة بعدم اختبار تلك الأحداث أو الاطلاع عليها بشكل مباشر في الحياة اليومية. حينما أذهب إلى المدينة تمشط حواسي المنطقة المحيطة باستمرار لاكتشاف أية مخاطر، وفقط إذا ما لمحت رجلا من رجال الشرطة تنتابني لحظات من الارتياح. هذا أمر جديد عليّ.

أخضع أنا نفسي للملاحظة باعتباري رجلا يبدو مسلما بالمعنى العام. إلا أن لديّ مخاوف أخرى ترتبط بهذا الأمر على نحو مباشر: هل سيساهم وفود المواطنين ذوي الملامح الجنوبية على تحفيز العنصرية المرضية؟ الإجابة ينبغي وأن تكون „نعم" في الوقت الحاضر؛ لأن هناك بيانات محددة عن الجموع الوافدة، وهو ما يصب حاليا في مصلحة اليمينيين.

أبناء المهاجرين ضد اللاجئين؟

ها أنا اكتسب الصفة العنصرية مرة أخرى بهذه الفكرة، لأن خوفي من العنصريين يعد تصرفا عنصريا في حد ذاته. فالشق الأيسر من قلبي يرحب باللاجئين، بينما يخشى شقه الأيمن تفاقم العنصرية جراء وجودهم. أميل إلى وصف ذلك بالعنصرية من الدرجة الثانية أو بالعنصرية غير المباشرة. هناك أشخاص

لديهم شيء ضد اللاجئين لهذا السبب بالتحديد، فهم أنفسهم من أبناء مهاجرين.

وباعتباري شخصا عنصريا مناهضا للعنصرية، فإنني أرى أن من شأن „الامتزاج الجنسي" للألمان أن يقضي نهائيا على أشباح الماضي ذات الصلة بهوس الجنس الآري. ولذا، فيا مرحبا بقصار القامة ذوي البشرة الداكنة! يا ليتني أغمر ألمانيا كلها بالأجانب حتى يعود جميع مواطني الجمهورية، من أدناها إلى أقصاها، إلى رشدهم ويتعلمون التعايش مع من يختلفون عنهم في الشكل والمظهر.

ولأنني كثيرا ما سقطت ضحية لحماقة العنصريين التقليديين من الألمان، فأنا لا أريد أن تتزايد أعداد تلك الفئة أكثر من ذلك. إلا أنه حينما يغتصب رجال مسلمون نساء ألمانيات، فإن أعداد تلك الفئة تنمو وتنمو على نحو متزايد.

يا إلهي، كم أكره هؤلاء المرضى بالكراهية! تزداد حالتي سوءا يوما بعد يوم، فقد أصبحت في الوقت الراهن لا أثق على الفور فيمن يبدو لي ألمانيا على نحو مبالغ فيه. ومن يدري، أليس من الممكن أن تتطور عنصرية المذعورين المأسوية في أي وقت إلى عنصرية قائمة على الكراهية المرضية؟

يا ليتني أستطيع أن أرى الناس كمجرد أفراد! كلٌ مختلف عن الآخر، ألن يكون هذا رائعا؟ ولكن رأسي يعج بالنماذج المسبقة وعادات الإدراك والمخاوف بل وبالخوف من المخاوف.

للأسف، كلنا عنصريون.

شتيفن أولي كاتب روائي ولد في كولونيا عام ١٩٦٥ لأم ألمانية وأب بنغالي. وتعد رواية «طفل الحظ» (Glückskind) أكثر رواياته نجاحا حتى الآن، وتحولت أيضا إلى فيلم سينمائي. يقيم شتيفن أولي مع أسرته في ميونيخ، وذلك بعد أن أقام لفترة طويلة في البرازيل.

ترجمة: هبة شلبي

■ من الغريب أن مسألة الانتماء لخلفية ثقافية مزدوجة ما زالت مثيرة للدهشة، لكن ليس كثيرا، كما كانت عليه الحال في الماضي. خاضت كاتبتنا تجربتها الخاصة مع الشعور الدائم بالتواجد في المكان الخطأوالأحاسيس المضطربة بين الغربة والحنين، وما لبث الأمر أن سحرها بفضل القراءة والكتب والرحلات.

شجرة ميلاد في جدة وبامياء في ألمانيا

حين يصبح المكان الخطأ وطنا

رشا خياط RASHA KHAYAT



لاجئون سوريون في نزهة، ولاية بافاريا
Photo: Achim Wagner

افتقدت أمي البقدونس بصورة خاصة. ليس البقدونس ذو الوريقات الصغيرة المجعدة، إنما البقدونس ذو الأوراق الملساء الذي تشتريه في ربطات سميكة من السوق. كما افتقدت أيضا الكزبرة والكوسة الطازجة. كنا قد عدنا للتو إلى ألمانيا بعد غياب دام ثمانية أعوام عشناها في جدة واعتادت أمي خلالها فنون الطبخ المحلية. نحن أيضا افتقدنا تنوعات المائدة. تقبل أخي عدم وجود الباميا سريعا، أما أنا ووالدي فقد أعلنا الحداد على الملوخية الحبيبة سنوات طوال. بذلت والدتي كل ما بوسعها لتطهو لنا أطباقنا المفضلة بشكل من الأشكال، فراحت تغشّ، تزيّف وترتجل، وتقصد كل محل تركي جديد كواحدة من أولى زبائنه على أمل العثور على البقدونس المشتهى، ممنية النفس بإمكانية الأمر.

كان ذاك عام ١٩٨٨ في بلدة صغيرة من منطقة الرور، وقد تمكنت بين الوقت والآخر من العثور على بقدونس ناعم الملمس أو كوسة طازجة.

السعادة في جدة

علي أن أذكر هنا أن أمي ألمانية المولد وأبي من السعودية. وترجع خطوة الانتقال إلى ألمانيا، موئل أجدادي لأمي، في المقام

الأول إلى الفكرة القائلة أن حياة الأطفال، حسنا حياتي أنا كفتاة، ستكون أفضل في ألمانيا، كذا سيكون دخولي المدرسة أيسر. لم يكن القرار سهلا على أحد. خاصة أمي، الشقراء الحنون، التي لازالت تذكر وبحزن شديد كم كانت سعيدة في جدة، تفتقدها حتى اليوم وتعتبرها وطنها.

لمست في هذه الأثناء، وقد دام الأمر طويلا حتى تيقنت، أن أغلب مواطني ما يُدعى بالغرب يندهلون ويستفسرون متفاجئين حين يقال لهم إن امرأة ألمانية، عائلة مختلطة، قد شعرت بالراحة والسعادة في ذلك البلد البعيد المعروف إعلاميا بالعناوين السلبية، حيث لا يسمح للمرأة بأي شيء من قيادة السيارة إلى فتح رصيد مصرفي. ورغم هذا تشتاقون للبقدونس والعدس المجروش؟! أما زال في رؤوسكم عقول؟!

فيما يتعلق بالطعام، رتبنا أمورنا طوعا أو كرها مع الوطن الجديد، بشكل من الأشكال. تنتهي الإجازة السنوية في جدة بتسوق كميات كبيرة منه وشحن علب الفول المدمس، والعدس المجروش، ومختلف التوابل والرمان الطازج في حقائب ضخمة إلى ألمانيا. وحين تنتشر رائحة الباذنجان المشوي مع بذور الرمان والكزبرة في البيت الألماني، نشعر بطقوس الاحتفال بالميلاد. الأمر الذي لا يطفئ الشوق للمنزل القديم، بل ربما يزيده قليلا.

أشياء أخرى كانت أصعب على أفهامنا. على سبيل المثال، لمَ علينا أن نسمع باستمرار، في المدرسة مثلا، عبارات على غرار: لا بد أنكم في غاية السعادة للعيش في ألمانيا، أنتم بالنتيجة ألمان! اختلافنا النوعي، خاصة نحن الأطفال، غير بادٍ للعيان للوهلة الأولى، نتكلم الألمانية بطلاقة ودون لكنة، بشرتنا ليست داكنة بشكل ملحوظ ولا شعرنا داكن. كل ما هنالك أن أسماءنا غريبة، علينا تهجؤها كلما سُئلنا عنها، إنه الشيء الوحيد الذي لم يكن للوهلة الثانية مناسبا لمجتمع البلدة الصغيرة في منطقة الرور الألمانية. لقينا ترحيبا حارا، بل طيبا كما يُقال، فلماذا إذن نشعر أننا غرباء، على الهامش، وفي الوقت ذاته ملحقين بجماعة دون إرادتنا؟ هل هو الطقس البارد؟ هل هم الأطفال الغرباء؟ أم ندرة الطعام العربي؟

محاولات التكيف

عندما أعود بذاكرتي اليوم إلى سنواتي الأولى في ألمانيا، وإلى جميع الأسئلة التي طرحتها (أو لم أطرحها) على نفسي أو طرحها آخرون (أو لم يطرحوها)، أشعر أحيانا بالدوار.

لقد انقلبت حياتنا، فجأة أصبح المنتجع السابق لدى الأجداد في ألمانيا منزلنا ومنزلنا السابق مجرد مصيفٍ لقضاء العطلات. ورغم هذا لم يكن لنا الحق في أن نكون غرباء، بسبب اللغة، وأفراد العائلة الألمان. لكن مازال ذلك الحنين، ذلك التوق، قائما فينا، ما لم يقبله الجميع، المصرّون على أن حياتنا في ألمانيا أفضل بكثير، أكثر حرية وأجمل. بدأت أخجل من نفسي، وتتضخم شعوري بأني لست طبيعية كوني لا أرى ما يجب اعتباره الأفضل في هذه البلدة بمنطقة الرور الصغيرة.

الوجود في المكان الخطأ. لا نعرف لهذا الشيء اسما، هو صوت داخلي يصرخ فينا: „مخطئ أنت إن لم تشعر بالراحة هنا". هذا ما يقوله لك من حولك: „عليك أن تشعر بالراحة. أنت السبب بكل تأكيد".

استمر شعوري ذاك طويلا. لم أتمكن من البوح بحقيقته لأحد، عار كبير وخوف شديد من أن يكون عيبا فيّ، فشلا ذاتيا. وفكرت أنا الشابة: لو أني بذلت جهدا أكبر، لو أني رويت نكتا سخيفة عن العرب، وصقلت ألمانيتي وخلعت عني عربيتي، لو أصررت على أني ألمانية وابتعدت عن كينونتي العربية، لتطابق شعوري يوما ما مع ما أجمع عليه الآخرون.

التحرر بالأدب

ثم قرأت، وأنا في السابعة أو الثامنة عشرة، قبل التخرج من الثانوية على كل حال، تلك الجملة التي تصف شعورا مألوفا لدي وللمرة الأولى: „اسمي كريم أمير، أنا انكليزي، نشأت وترعرعت كإنكليزي، أو تقريبا على كل حال." الجملة الأولى من رواية حنيف قريشي «بوذا الضواحي»: „أو تقريبا على كل حال"، هذه الكلمات، هذه الجملة الملحقة، غاية في السهولة والبساطة وتعكس كل شكوكي، كل ما أعاني من قلق من نفسي ومن العالم المحيط بي. عثرت على شخص يختلف تماما عما يشي به اسمه.

تحكي الرواية عن أم كريم البريطانية التي تضطر لسماع ملاحظات جيرانها العنصرية بحقّ والد كريم المسلم الهندي المندمج اجتماعيا، والذي يتخذّ لنفسه فجأة دور الغورو البوذي في حي للطبقة الوسطى، يفتتح ورشات عمل لليوغا، يلقي محاضرات عن الروحانيات ويخلق لنفسه بذلك هوية جديدة. نسمع في الرواية كل الأصوات، صارخة وهامسة، خفية وهجومية، في كل شخصية، دائما على خلفية السؤال: كيف تكون الحياة باسم غريب، هيئة غريبة في ضاحية صغيرة وضيقة.

كنت قد تعودت القراءة بشكل متواصل، بل وعملت في مكتبة على أمل أن أجد تفسيرا ما لهذه الهوة المضببة في داخلي. بيّنت رواية قريشي لي، وربما لجيل كامل من أبناء المهاجرين، ربما للمرة الأولى، أن الشعور المفرط بالانزياح لا يأتي من الداخل بل يفرض عليك من الخارج، أن التلاميذ في المدرسة، الزملاء في العمل والجيران، يضعونك باستمرار، بملاحظاتهم حسنة النية من ناحية وبعدائهم الصريح من الناحية الأخرى في هذا الموقع المختلف، في خانة «الآخر». لا تزال رواية «بوذا الضواحي» أهم كتاب في حياتي حتى اليوم.

اتقدت روحي، شعرت أن أحدا فهمني، كما شعر أقراني مع «ذئب البراري» لهرمان هيسه أو «ثقافة البيت Beatniks». بدأت الكتابة، كتبت وكتبت، كتبت يوميات، حاولت مثل قريشي العثور على الكلمات والصور التي تعبر عن شعوري بالغربة، في

محيطي الخارجي. قرأت وكتبت، كتبت بالتفصيل عن البلدة، عن الصراعات الداخلية والخارجية، مع الأسرة، الأهل والتلاميذ. كتبت لأخرج من عزلتي إلى نمط رائع من العزلة، عزلة القارئ الكاتب.

هجرت البلدة الصغيرة في منطقة الرور وسكنت مدينة متوسطة على نهر الراين. فيها مروج خضراء ريانة، ومبان قديمة ملونة واجهاتها من الجص، وقلعة قديمة صفراء تضم الجامعة التي درست فيها لاحقا. فيها مزيد من الكتب، مزيد من الأدب وأناس جدد أحببتهم جدا، أروني أفلاما أجنبية، قربوني من الفن الحديث ووضعوا رواية «توسيع ساحات الحرب» لميشيل ويلبك على وسادتي. بدأ العالم يفتح لي أبوابه، دخل هواء جديد في حياتي التي ضغطتها البلدة الصغيرة. كما جرى لكريم في رواية «بوذا الضواحي»، حيث انتقل إلى لندن وغدا ممثلا. وللمرة الأولى شعرت حقا أني في بيتي، في الفن، في اللغة التي امتلكت ناصيتها. في الآن ذاته، ما أدركته متأخرة، إنني ابتعدت أكثر فأكثر عن الأسرة التي شاركتها شعور الاغتراب، والشوق إلى المهجور، إلى البقدونس والكزبرة الطازجة.

السياحة في العالم العربي

هزت دروس الاستشراق هذه الأمور الخبيئة، ذلك الأصل الذي كنت قد نسيته أخيرا. هزها إدوارد سعيد، رحالة القرن التاسع عشر في المشرق، ورواية «نساء القاهرة» لجيرارد نيرفال. من جديد أفاقت تلك الصور، الأصوات والروائح الموصوفة بأقلام غربية، بنظرة «استشراقية»، كما تعلمنا نحن الطلاب. وكثيرا ما وددت الصراخ: „نعم، في هذا شيء من الصحة! أنتم لا تعرفون، لكن أنا، أنا أعرف! صدقوني، أعرف عما أتحدث!"، لكني اصطدمت مرارا بتلك الفجوة، الفجوة الغربية المؤلمة.

بعد الانتهاء من «الاستشراق» انكببت على سيرة إدوارد سعيد «خارج المكان». قصة غير معقولة، مليئة بالتناقضات، مليئة بالحب، بالحزن، بالأسئلة ومحاولات الإجابة عن المنشأ والمكان الخاص في العالم. تولد «تأثير قريشي» جديد. وهذه المرة بدأت قراءة منهجية. قرأت كتب الاستعمار، خاصة الانكليزي والفرنسي، استعنت بكتابات سوزان سونتاغ وجوان ديديون، كتبت „لمعرفة ما أفكر فيه"، بكلمات ديديون، واستعدت لغتي القديمة، الأصلية، الأولى، قرأت الصحف والكتب العربية، حصلت على أفلام ومسلسلات عربية. فتحت الباب من جديد، شرعت المصاريع للغة العربية، للقاء بعد غياب طويل وبدأت التجوال. سافرت طوال ثلاث إلى أربع سنوات، شهورا كل عام إلى كل الدول العربية. غالبا بمفردي وأحيانا لا. وقفت في وجه جميع الأسئلة التي تطرح عما أفعله ولماذا، بكل بساطة لم أرد عليها.

خلال رحلاتي قرأت وكتبت. كتبت رسائل، مقالات وأعدادا هائلة من القصص في دفاتر ملونة. كتبت عن اللقاءات التي عشتها، الأفراح والأتراح التي تعرضت لها، كل ما يجري خلال السفر. فجأة شرعت أكتب بثلاث لغات في دفتر ملاحظاتي، تحرر رأسي من كل عنان، امتلأت الصفحات بكلمات وعبارات بالألمانية والعربية والانكليزية. بطريقة غريبة شعرت لأول مرة بالحرية. حرة كنت من نظرات الآخرين التقييمية والحاكمة.

تدفقت أشواقي، لكني افتقدت أيضا وفجأة سريري الألماني. أخيرا تناولت فلافل طازجة من الباعة الجوالين وفرحت بالمقابل في كل مرة عدت فيها إلى ألمانيا بوجبات جدتي من الـ «زاوربراتن»، والملفوف الأحمر وكريات البطاطا المهروسة المسلوقة على المائدة. بدأت الفجوة تتقلص، تدريجيا وببطء، كان في ذلك خلاصي.

كل هذا لم يجر بسلاسة، لم يخلُ من الكبَوات. خسرت بعض الناس، كما هي الحال دوما حين يلقي المرء بقشره، كما هي الحال حين نواصل الحركة قُدُماً. آخرون نضجوا معي، ظلوا أو عادوا. ساعدوني في الوصول، هنا أو هناك. أثث لي عالما تتوازعه عدة بلدان ولغات، بكثير من البشر، ضمهم قلبي في كل مكان.

وخلعت أخيرا رداء البلدة الصغيرة الضيق في منطقة الرور وشرعت في تأليف كتاب.

الاندماج لا يعني الانصهار

قبل وقت وجيز ألقت الكاتبة البريطانية تاي سيلاسي محاضرة بعنوان: «لا تسألني من أين أنا، اسألني أين أشعر بأن هذا محل سكني». محاضرة تلائم القرن الحادي والعشرين بصورة مثالية، وتؤكد أن شيئا من قبيل «الأصل» لم يعد يسهل تحديده على وجه اليقين، أن الهويات أمست سائلة وأننا، كجيل شاب في مجتمع معولم بتنا „سكانا محليين" في عدة أمكنة. تقول سيلاسي في محاضرتها إنها تشعر بأنها من «السكان المحليين» لعدة ثقافات، لا تشعر بنفسها بريطانية أو غانيّة أو أمريكية حتما. لكل تجربة موطن في ثقافة بعينها أو بأخرى، كل هوية هي مجموع تجارب المرء.

إن سيراً تشبه سيرة تاي سيلاسي، كسيرتي، غدت اليوم حالة طبيعية. بشر ينتمي أهلوهم لبلدان وثقافات وأديان مختلفة، يستقرون في أي زاوية من زوايا العالم. يبدو أنه لم تعد ثمة مشكلة على هذا الصعيد إلا في التطبيق والنظرة اليومية. هذا الشعور بعدم الانتماء التام، أي بالاغتراب، تفصيل تتشاركه جميع السير. نبحث عن ملاذ جديد في العالم، في الفن، هناك، حيث النظرة خالية من أية أحكام.

ما من أحد يعزل نفسه بنفسه، لا أحد يشعر بنفسه في المكان الخطأ بقرار ذاتي، بإرادته الذاتية. إذن لا بد أن لهذا سببا خارجيا، شيئا يواجه من يشعر أنه في غير مكانه، يمنعه أن يكون في مكانه الصحيح.

حين يصل المهاجر، اللاجئ أو طفل ثقافة ثالثة، إلى مكان يسعى للاستقرار فيه مؤقتا أو دائما، يبدأ حتما بمحاولة التكيف.

يتعلم اللغة، إن لم يكن يجيدها مثلنا آنذاك، يتقبل اللهجة المحلية وربما لغة جسد بعينها وعادات تنتمي إلى المحيط. يراقب الناس بدقة، يصبح فنانا في التغلب على مصاعب الحياة داخل الحشد، يحاول ألا يلفت الأنظار، ويفرح أغلب الأحيان عندما يُثنى على اندماجه. يتحول إلى حرباء، تخجل من كل اختلاف ظاهري.

غالبا ما ننسى، نتجاهل، نتغاضى عن أن الاندماج الناجح لا يعني الضم أو الانصهار. حينها ثمة جزء يختفي من ذواتنا، يتم التنازل عنه، يضيع أو ينتزع.

الطعام العربي تحت شجرة الميلاد

شعرنا بالغربة في ألمانيا لأننا افتقدنا أمورا أليفة، العائلة الكبيرة التي كنا نقضي وإيّاها معظم الوقت في جدة، الطقس الحار، الشمس وأيام الجمع على البحر. الأذان العالي خمس مرات في اليوم، اللغة التي غدت فجأة غريبة لاختلاطها بالألمانية ورحنا نتكلمها في أسرتنا الصغيرة وفي مطبخنا فقط، لا نسمعها من التلفاز أو الراديو والهواتف، اختفت من المكان، ما لا يمكن نسيانه من الروائح والأطعمة المعروفة للبقدونس والكوسة. كل هذا لم يتم تجاوزه، فما بالك باستبداله بحرية قيادة الدراجة الهوائية إلى المدرسة دون زي رسمي، أو حقيقة أن أمي عادت لتجلس خلف مقود السيارة.

أحلم بزمن يجري فيه كل هذا معا. لا يرى فيه أحد إن كانت بشرة غيره أكثر دكنة أو إن كان وقع اسمه غريبا على الأسماع. زمن لا يخجل فيه أحد لأن غيره ينظر إليه بتعال لمجرد كونه غريبا. زمن يسمح فيه، بل يكون بديهيا، أن يلعب ويبدّل أحدنا العوالم التي يحملها في داخله بكل حرية.

أكبر مصدر إلهام لي هنا، وأعتقد أنهما لا يعرفان، هما والداي، اللذان بنيا لنا منزلا تُنصب فيه كل سنة شجرة الميلاد، كما يُقدم لنا فيه عدة مرات في السنة شوربة عدس مع السمبوسك.

أما اليوم فيمكن شراء البقدونس والكوسة من كل مكان في ألمانيا!

رشا خياط ولدت عام ١٩٧٨ في دورتموند بألمانيا، وعاشت طفولتها في جدة بالسعودية. عندما بلغت الحادية عشرة انتقلت أسرتها إلى ألمانيا من جديد. درست الأدب المقارن، الآداب الألمانية والفلسفة في جامعة بون. تعيش منذ ٢٠٠٥ في هامبورغ وتعمل في حقل الكتابة والترجمة والتحرير. صدرت لها عام ٢٠١٦ رواية: «لأننا في مكان آخر منذ زمن بعيد».

ترجمة: كاميران حوج

■ تعتبر طنجة، المدينة الواقعة شمال المغرب، أحد المعاقل الكبرى لتجمعات بشرية قادمة من إفريقيا ومتجهة نحو أوروبا. يستعرض هذا التحقيق الصحفي تصورات هؤلاء اللاجئين عن الحياة في أوروبا وكيف يقضون أوقات الانتظار في المغرب ويحاولون دون جدوى العبور إلى الضفة الأخرى.

الموت كسلاح

عن اللاجئين وأحلامهم

ألفريد هاكنسبيرغر ALFRED HACKENSBERGER

أمرُ يوميا من قبالتهم وأنا ذاهب إلى المدرسة أو إلى التسوق أو إلى المدينة أو البحر. يقفون أمام كل إشارة مرور ويدقون بأيديهم نافذة سيارتي. شباب تسكن ملامحهم المعاناة والمكابدة، يقومون بحركة تدل على أنهم جائعون ويحتاجون المساعدة. أمهات صغيرات السن يحملن أطفالهن الرضع ويلوحن بأيديهن، بما معناه أنهن في حاجة إلى الحليب. قادمون من نيجيريا، الكاميرون، أو مالي، أو التشاد، بل وكذلك من مناطق غير إفريقية كسوريا وباكستان. تحولوا في شوارع طنجة إلى جيش عرمرم من المتسولين المحترفين. أغلبهم يعترف أنه لا يريد البقاء في هذه المدينة الساحلية. بل نيتهم هي العبور نحو إسبانيا. القليل منهم خائف ويدعي أنه يبحث عن عمل في المغرب. كل هذا أمر مفهوم، لأن اجتياز مضيق جبل طارق عمل غير مشروع. والكل يخاف من حدوث مشاكل مع الشرطة. الشرطة المغربية تعاملهم معاملة أقل رقة ولطافة. بل يتم حتى شحنهم إلى الرباط والدار البيضاء ومراكش.



غرافيتي، برلين
Photo: Achim Wagner

طنجة، هذه المدينة المليونية المغربية الواقعة على البحر المتوسط وعلى أقصى نقطة شمال القارة الإفريقية، تعتبر منذ عشرين سنة نقطة انطلاق للاجئين المتجهين نحو أوروبا. هذه الطريق هي الأكثر ثباتا ودواما على الرغم من كونها أضحت منسية. فليبيا في الوقت الحاضر هي محط الأنظار، إذ يخرج منها الآلاف من اللاجئين في اتجاه ايطاليا، يفقد خلال هذه المغامرة البحرية المئات أرواحهم. إلى أي مدى ستبقى ليبيا أرضا للعبور، يرتبط هذا بمجريات الحرب الأهلية هناك. أضحى هذا البلد الآن معبرا مؤقتا مثلما كان الحال عليه سابقا في موريتانيا أو السنغال. وتلعب الضغوطات الأوروبية دورا مهما في تحديد سلوكات السلطات المحلية والتي قد تكون مجبرة على إغلاق هذا المعبر مما سيضع نقطة نهاية لموجات الهجرة من هنا. مدينة طنجة شيء آخر، فمن هنا لا تنتظر المهاجرين مئات الأميال البحرية حتى الوصول إلى القارة الأوروبية، بل فقط أربعة عشر كيلومترا، وهي المسافة التي تفصل إفريقيا عن القارة الأوروبية. إن السلطات المغربية تمنع تسرب قوارب اللاجئين تقريبا بالكامل. لكن المسافة القصيرة تبقى مغرية. الشيء الذي يؤدي إلى تقاطر أعداد الراغبين في العبور وبدون انقطاع ودون مراعاة ما إذا كانت نسبة النجاح كبيرة أم صغيرة، يحاولون بلوغ الضفة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط.

وحسب سجلات منظمة الإغاثة الكاثوليكية «كاريتاس» بطنجة، يوجد حوالي عشرون ألف مهاجر يتحصنون في شمال المغرب وينتظرون فرصة العبور إلى أوروبا. ربما يوجد أكثر من هذا العدد لأن سجلات «كاريتاس» لا تتضمن كل المهاجرين. بالنسبة لسكان مدينة طنجة ولي شخصيا، فإن عددهم على ما يظهر كبير ويفوق ما كان عليه سابقا. كان هؤلاء قبل عشر أو خمس عشرة سنة يسكنون فنادق صغيرة ورخيصة في المدينة القديمة، أما اليوم فنراهم منتشرين في ضواحي المدينة، حيث تقوم مخيمات كثيرة في العراء. ويرجع السبب في تزايد أعداد المهاجرين في طنجة إلى أن الطريق إلى أوروبا من هذه المدينة أقل خطرا بكثير مقارنة بليبيا، التي تعيش حربا أهلية والقيام بمغامرة الإبحار في البحر المتوسط في زوارق مكتظة بالناس نوع من الانتحار. في جو مشمس وصاف يمكننا ونحن في شارع باستور وسط المدينة رؤية ساحل شبه الجزيرة الإيبيرية وبصورة واضحة. هذا الساحل يظهر بأنه من السهل الوصول إليه ولا يبعد إلا خطوتين. في الحقيقة يتم عبور هذه المسافة عن طريق عبارات سريعة في زمن لا يتعدى نصف ساعة. لكن المسافر هنا يحتاج إلى جواز سفر غربي أو تأشيرة شينغن. فقط بهما يمكن اقتناء تذكرة السفر. وكلاهما طبعا ليسا في حوزة اللاجئ. الكثير من هؤلاء حاولوا في بلدانهم الحصول وبدون جدوى على تأشيرة دخول إلى ألمانيا فرنسا أو بريطانيا، لذلك نراهم في طنجة ينتظرون لكي يركبوا يوما زورقا مطاطيا يعبرون من خلاله مضيق جبل طارق إلى إسبانيا. إنه عمل خطير، لكن كما يقولون كلهم: „لأن هناك يبدأ كل شيء جيد وتكون الحياة أفضل". „هناك يوجد عمل كثير وتعليم جيد ومن يكون مجتهدا سيصبح غنيا". „ستسنح الفرصة بمعرفة إمرأة أو رجل غني للزواج". إنه حلمهم بالجنة. الحلم بالشمال وإمكانياته غير المحدودة يتطلب نوعا من الانتظام لكنه يضمن الاستقرار والرفاهية. إنهم سمعوا بالأزمة في أوروبا لكن كما جاء على لسان شاب عمره واحد وعشرين سنة من الكاميرون وإسمه كرداي : „إن الكسول فقط من لا يجد عملا". هذا الرأي هو السائد ويردده الجميع. وكما يظهر لنا نحن الأوروبيين، فهذه أحلام مستحيلة. إننا نرى شمالنا أقل بكثير من أن يكون فردوسا: إننا نشتكي من مجتمع الإنجازات ونطمح إلى الهروب من ضغوطاته والتزاماته، ونريد الخروج من عالم عقيم حيث كل شيء أصبح قابلا للمقايضة وتعدمه الأصالة، بل حتى الحياة الخاصة أضحت تخضع لقوانين السوق. ربما لسنا كلنا نعبر عن ذلك بمثل هذا الوصف، لكن هناك شيء يتمثل في الشعور بعدم الراحة ويثير الشوق إلى ما هو أبعد. بالنظر إلى الأزمة قد تكون تحولات حدثت في اليونان البرتغال أو إسبانيا، حيث العاطلون عن العمل هنا يكونون فرحين وهم يحصلون على فرصة عمل يستطيعون عبرها إعالة أسرهم وتوفير تأمين صحي لهم. لهذا الغرض يرضى هؤلاء بالتعايش، وبدون تذمر، مع «الاستلاب الرأسمالي» الذي كان قبل سنوات محل انتقاد. بالنسبة للألمان والإنجليز والفرنسيين فإن شوقهم إلى الجنوب عادي وكما كان من قبل. نحو إسبانيا، المغرب، التايلاند، وجزر الكاريبي. إن الجنوب عندهم هو الشمس، والبحر والشاطئ، بل أكثر من ذلك المزاج، والمتعة، والشهوانية، والجنس، وحسن الوفادة والضيافة، الصدق والانبساط وأشياء أخرى .. عناصر تظهر كما لو أنها قيم لحياة جميلة وأفضل. ومن الواضح أن هذا العالم يقابله عالم آخر، صباحا نشاهد قطارات المترو مكتظة بالناس، نستقبل رؤساءنا في المؤسسات وهم يحملون معهم مزاجهم السيء، شرطيات المرور يوزعن الغرامات، السرعة في اقتناء اللوازم اليومية بالمراكز التجارية الكبرى، الضغط الدائم والفوائد الفائقة على مستحقات شراء البيت. إن الأشواق تنمو على النقيض من واقع الشيء كما هو مألوف. والإنسان يتمنى دائما الشيء الذي لا يملكه. فما يبدو ناقصا، يتم الإعلاء من قيمته إزاء الواقع وتجسيمه وإصباغ مختلف الكليشيهات والقوالب الجاهزة عليه. أعني بذلك الجنوب الذي يتم النظر إليه كمكان ترفرف فيه ريح الحرية وتبدو للحياة فيه قيمة، إذا ما أردنا المبالغة في الوصف. لكن ما أن يخطو المرء في هذا العالم المشمس، حتى يكتشف بسرعة أن السكان الأصليين هنا، لا يضحكون فعلا طيلة الوقت. فللذهاب إلى العمل لا بد من النهوض مبكرا على الساعة السابعة صباحا، ثم إن البيروقراطية فاسدة إلى درجة أن أصواتا تطالب بعودة الموظفين الألمان الذين كانوا يوما محل عداء ونقد. وتبدو الحياة هنا على الأقل بالصعوبة والسهولة نفسها التي هي عليها في أوروبا.

أعيش منذ خمسة عشر عاما خارج ألمانيا (لبنان، المغرب وإسبانيا) وأسافر كثيرا لأسباب مهنية، لذلك أعتبر نفسي قد تخطيت الأوهام الأولى. إني أعرف الآن ما الذي علي فعله وأخطط مسبقا لحياتي ولا أسمح بأن أقوم بمغامرة غير محسوبة، مثلما يفعل هؤلاء المهاجرون، ولم تعد لكثير من الأشياء بسبب من تعدد السياقات الثقافية الأهمية التي كانت تتمتع بها في البداية. فلا يوجد بلد أحلام. والخارج، رغم الغرابة التي قد نصبغها عليه، هو ببساطة شيء آخر غير الوطن. أما هل يكون الشخص هنا مرتاحا من عدمه، فهو أمر يخضع للتفضيل الشخصي. وبوسعنا نحن الأوروبيين استعمال مصطلح التفضيل الشخصي بسهولة والذهاب بسهولة إلى الجنة ونستطيع أيضا أن نتخلى عنها، إذا لم تعجبنا، بل نغيرها بجنة أخرى. إن حيازة جواز سفر أوروبي يجعل هذا الأمر ممكنا.

عندما تتعثر الأحلام

تسير حياة اللاجئين في طنجة على نمط آخر. فسفرهم مسألة فريدة وكل حياتهم تتوقف على ذلك. يغامرون بحياتهم ومدخرات أسرهم، ورغم ذلك فإن نجاح هجرتهم يبقى معلقا ودائما بخيط رفيع. النهاية تحدق بهم من كل ناحية. فقد يتعرضون للسرقة أثناء عبورهم للصحراء أو في أسوء الحالات للقتل، وحتى في المغرب قد يفقدون كل ما لديهم من أمتعة ومال بكل سهولة.

أما بالنسبة للنساء، فالسفر شاق جدا وخطير، وقد يتعرضن مرارا للتحرش، بل الكثير منهن يتعرضن للاغتصاب. لكن في النهاية، تبقى الخطوة الأخيرة هي عبور المتوسط والذي قد يكلف المهاجرين حياتهم. وحتى وإن اجتاز هؤلاء كل العقبات، بعد سنوات من الانتظار، ماذا سيكون مصيرهم في أوروبا؟

إن صدمتهم ستكون مرة وأليمة، لأن الأحلام التي يحملونها لا صلة لها بالواقع الأوروبي الذي قذف بهم فيه. ستنتظرهم أشهر طويلة في المخيمات والملاجئ ويجبرون على العيش بدون عمل وقد يتم لربما طردهم من البلاد بعد ذلك، وحتى لو سمح لهم بالبقاء، فسيكون مصيرهم البطالة. وإذا صادفهم الحظ، سيجدون أعمالا مؤقتة وغير مستقرة، يضمنون بها عيشهم فحسب. ربما يبيعون في الطرقات منتوجات مزورة مثل الحقائب الجلدية أو أقراص الموسيقى والأفلام، وقد تراهم يتسولون من جديد، مثلما كان حالهم في طنجة. لكن المهاجرين لا يريدون سماع الاحتمالات المستقبلية السيئة. هذه في رأيهم قصص أشخاص فاشلين. وكل منهم يعتقد أنه سيعمل أحسن وسيحالفه الحظ مقارنة بالآخرين. إنه الكلام نفسه الذي أسمعه منهم منذ خمسة عشر عاما، لكن ما أجده مدهشا عندهم ليس حلمهم بأوروبا، ولكن الحماس الذي عبره يتناسون الواقع، ولربما هذه هي الطريقة المناسبة لمن يريد أن يتحمل المصاعب.

„أوروبا تحتاج إلى الهجرة، لكن إلى هجرة القوى العاملة المتخصصة. إن أغلب الذين يأتون وخصوصا من إفريقيا، ليسوا من هذا الصنف كما توضح ذلك Carmen Gonzalez Enriquez، التي تعمل كمتخصصة في الهجرة في مؤسسة الكانو في مدريد. إن المهاجرين لا يعثرون على عمل حتى في مستواهم المهني غير المتخصص. فهم لا يتوافقون مع المتطلبات الحالية لسوق العمل". وهي تضيف بأن أوروبا تعاني فعلا من مشكلة ديموغرافية، لكن المهاجرين واللاجئين الذين يتواجدون منذ أشهر في إيطاليا، لن يحلوا وحدهم هذه المشكلة.

لا يمكن للدول الأوروبية بتاتا إيجاد حل لذلك، واللاجئون لا يفكرون في الفرص المواتية لسوق العمل ولا في الديموغرافيا، فهم يعرفون أوروبا عن طريق الانترنت والتلفزيون. „إن ما يراه الإنسان من أفلام وثائقية ومسلسلات عن أوروبا، كلها أشياء جميلة" كما يقول كردال من الكاميرون مبتسما، „كلها أيقظت شعوري". ولا يستطيع لجم فرحته وهو ينتظر أرض الميعاد ويبتسم حتى أذنيه وكأن غدا عيد ميلاد المسيح. قرر كردال قبل سنتين تقريبا القيام بهذه المغامرة، وهو لا يختلف كثيرا عن الألماني الذي بعد مشاهدته لأفلام عن طبيعة كندا، يقرر الرحيل إليها. يقول لي كردال البالغ من العمر واحدا وعشرين عاما، بأن والده توفي منذ مدة، وأنه لم يبق له إخوة، وأمه تعيش لوحدها في قرية بالكاميرون، وتنتظر اتصاله من أوروبا كل يوم، منذ سنة، عندما فارقها. „سيأتي هذا اليوم سريعا" يعتقد الشاب كردال، ويحلم أنه سيلعب يوما مع فريق ريال مدريد لكرة القدم ويصبح لاعبا محترفا. „إنني مدافع عظيم" كما قال لي. كردال ليس الوحيد في المخيم، الواقع بالقرب من مطار طنجة، الذي تراوده هذه الأحلام. وفي هذا المخيم ينام خمسون رجلا وامرأة وطفلا جنبا لجنب قادمين من نيجيريا، الكاميرون، مالي، غامبيا، كينيا وساحل العاج. تحت مجموعة من الأشجار تشتعل نار المخيم وبالقرب منها خزانات بلاستيكية مملوءة بالماء، جيء بها من أحد الآبار القريبة. والقليل منهم ينام فوق فراش. „في الصيف لا تحدث مشاكل" يقول كردال „لكن في الشتاء نحتاج بالضرورة إلى مكان يقينا من الأمطار". ويؤكد وائل القادم أيضا من الكاميرون والذي يبلغ من العمر تسعة عشر عاما، بأنه مدافع جيد، لكنه يفضل الذهاب إلى بلجيكا للعب في صفوف فريقه المفضل AC Anderlecht، „لا أعرف لماذا، لكني كنت دائما أحب هذا الفريق". ثم هناك محمد من مالي الذي يفضل نادي برشلونة ويتمنى أن يشارك في تدريب تمهيدي معه. إنه يؤكد لي، وعمره لم يتجاوز السبعة عشر ربيعا، بأن أول شيء سيقوم به حال وصوله إلى إسبانيا، هو أن يستقل القطار باتجاه برشلونة، وطبعا وبدون شك سيوقع فورا عقدا مع نادي ليونيل ميسي. „إنها ليست أحلام"، يقول محمد، وحتى وائل وكردال يوافقانه الرأي، وإن كانت مسحة من القلق تخيم عليهما. لكني ودون انتباه مني قلت لهم بأنه من الصعب توقيع عقد مع برشلونة. „لا، نحن جيدون بما يكفي من أجل الدخول إلى عالم الاحتراف". ويلاحظ المرء حماسهم بالنسبة للحلم الأوروبي، فبالنسبة للموهوبين والجديين كل شيء ممكن. لكني أتجرأ على طرح سؤال ما إذا كان المستقبل الوظيفي لمحترف أهم بكثير من وضع حياتهم وكل مدخرات عائلاتهم موضع خطر؟ „هذا سؤال سخيف" يجيب محمد غاضبا. „طبعا، لماذا نحن هنا؟" إنهم يبذلون كل ما في وسعهم من أجل تحقيق مسعاهم، يضيف كردال. وبعد فترة يصبح واضحا ما الذي يقصدون بذلك. إنهم يفكرون في السيارات السريعة، المسكن الكبير، الأكل الجيد والجمهور العريض، كما يعترفون بذلك. وفي أذهانهم تترسخ صورة حياة نجم كروي. „رفقة الكثير من الفتيات" طبعا، كما يقول وائل. لكن هؤلاء الشبان لا يختلفون عن شباب برلين، دورتموند أو ميونيخ.

سيحيط بنا شباب آخرون، جوني، أمادو، سيدي، موسى وفرناندو. ولا يتعدى عمر كل واحد منهم الخامسة والعشرين عاما. وفي أوروبا يتمنى كل واحد منهم أن يصبح شيئا ما، مهندسا، طبيبا، فنانا، كهربائيا أو عامل بناء. وهم يريدون الذهاب إلى فرنسا، ألمانيا، هولندا أو السويد. كل حسب معارفه أو حيث يتواجد نادي الكرة المفضل أو حيث تدور حلقات المسلسل التلفزيوني. إن أهدافهم موجهة نسبيا إلى ما يطمحون إليه. والأهم هو أوروبا، حيث توجد جامعة جيدة مجانية. في البناء توجد فرص عمل كثيرة وبأجر جيد، وعامل كهرباء مستقل يستطيع في فترة قصيرة جمع ثروة .. لقد اقتصد جوني وفرناندو سنوات من أجل القيام بهذه المغامرة وهو شأن جيفري أيضا، معلم لغة إنجليزية من نيجيريا

الذي حل بنا للتو. „لو تعلمون كم هو صعب رؤية ما اقتصدناه كل تلك السنوات ينزلق هنا من بين الأصابع". قبل شهر فقط أراد تهريب زوجته وطفله الرضيع نحو مدينة سبتة، لكن محاولته فشلت. إن الثمن الذي يطلبه مهربوا البشر هنا يتراوح بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ يورو. لقد حاول جيفري قبل ذلك بلوغ سبتة عبر استعمال قارب مطاطي، لكن حرس السواحل الإسباني اكتشفهم وأعادهم إلى الأراضي المغربية. كم كان ثمن كل هذا؟ يمتنع جيفري عن الجواب. لكن لا بد أن الثمن يضاهي آلاف اليوروهات. أما الثلاثة الآخرون، أمادو، سيدي وموسى، فقد حصلوا على الأموال من الأب أو الأخ أو العم. وهؤلاء بدورهم اضطروا لبيع منزل أو قطيع من الغنم لأجل الحصول على المال المطلوب. والد موسى اضطر لطلب قرض مالي ورهن أرضه. „كل شيء غال" يقول سيدي. „فالسفر إلى طنجة وحدها كلفني ثلاثمئة يورو، وهذا بدون تكاليف الإقامة. أما إذا كان لا بد من دفع ثمن المهرب، فإن العملية تصبح مكلفة للغاية". كلهم يدفعون أثمنة باهظة من أجل هذا الحلم. البعض يدفع ثلاثة آلاف يورو والآخرون عشرة آلاف يورو وهي في كل الأحوال قد تكون كافية كبداية لبناء قاعدة لحياتهم في بلدانهم الأصلية.

إن هؤلاء الذين اختاروا الذهاب إلى أوروبا بهذه الطريقة، ليسوا فعلا بأفقر الفقراء. „لم يكن الحال هكذا" تقول المتخصصة في قضايا الهجرة غونزاليس إنريكس، „فأفقر الناس لا يمكنه تسديد تكاليف مثل هذا السفر". „ليس الأمر هكذا وكما ينظر إليه في أوروبا والغرب، ليس هناك علاقة مباشرة بين الفقر والهجرة وأن المهاجرين قادمون من المناطق الفقيرة في بلدانهم. العكس هو الصحيح. فكلما تطورت بلاد فقيرة إلا وازدادت فرص الهجرة وليس العكس". وتتابع قائلة: „أنظروا، كلما تطورت دولة إلا وحصل الناس على رأس مال أكبر، به يمكن الاستثمار في بلد آخر، وينضاف إلى ذلك القدرات المهنية ومعرفة اللغات الأجنبية أو الدراسة الجامعية. إن التعليم في نمو والمعرفة في تزايد ومعها شبكات الاتصال وأهم من كل هذا مال كثير به تدفع فواتير السفر. إن الذين لا يملكون شيئا، لا يستطيعون السفر".

وفي المخيم، قرب مطار طنجة، بدأ النقاش حول الزوارق المطاطية القابلة للنفخ، والتي ينظر إليها وكأنها مفتاح السعادة. „أحتاج إلى زورق مطاطي.. زورق مطاطي" يصيح كردال عاليا، وكأنه في حالة سكر حتى الثمالة. „سأصل بسرعة فائقة إلى هناك، وكل شيء سيكون جيدا". ويهز كل من فرناندو ومحمد وسيدي ومعهم الآخرون رؤوسهم وقد استبد بهم الحماس ويدمدمون: „نعم، هكذا تسير الأمور". والكلام هنا فقط عن تلك الزوارق الترفيهية التي يمكن شراءها في كل الأسواق التجارية الكبرى بطنجة، وتكلف تقريبا ثمانين يورو، لكنه يصعب شراءها من طرف الأفارقة السود لأن الكل يعرف هنا أن زورقا مثل هذا سيستعمل لعبور البحر إلى الضفة الأخرى وأحيانا يتم إخبار الشرطة بذلك. وأقصى حمولة يمكن لمثل هذا الزورق تحملها هي مائتي كيلوغرام. لكن في طريقهم إلى الجنة الأوروبية، لا يعير هؤلاء أي اهتمام لهذا، ويتم نقل سبعة أشخاص على متنها. ويأمل المهاجرون داخل البحر استعمال الحيلة والخدعة، „فيتم مناداة الصليب الأحمر الاسباني وطلب النجدة" يقول كردال. يظهر هذا كما لو أنه شيء طبيعي وسهل ولكن الخدعة قد تتحول إلى خطر على حياتهم، لأن الصليب الأحمر الإسباني لا يملك سوى سفينة في الخدمة الساحلية وتكون هذه السفينة أحيانا غير قريبة من مكان تواجدهم، وبدلا من ذلك تصطادهم البحرية الملكية المغربية وتعود بهم إلى اليابسة من جديد. إنه الحظ في سوء الحظ كما يقال. فإذا لم يأت أحد لمساعدتهم، فإن مركبهم ستقذف به أمواج البحر بسهولة نحو المحيط الأطلسي، وعند ذاك سينتهي كل شيء. لكنهم لا يعبئون بهذه الأخطار. „الموت أو أوروبا". هذا شعارهم،. كما يرددون كلهم. والسفينة الكبيرة، التابعة للصليب الأحمر الإسباني، تبقى دائما أملهم الكبير، أمل كل هؤلاء المغامرين الذي يطلبون عبور المتوسط.

فاجعة إنسانية

يعتقد كل اللاجئين في طنجة بأنها فقط مسألة وقت ومجهود ذاتي حتى يصلوا يوما إلى الجنة. لكن هنا كل شيء مختلف. „إنهم في مأزق، ولا يستطيعون التقدم ولا العودة"، كما جاء على لسان سانتياغو اغريلو مارتينيز في الفناء المشمس لأسقفية طنجة. فهذا الأسقف يعرف جيدا عمل منظمة «كاريتاس» وعبر ذلك مصير اللاجئين: „لا توجد تقريبا، أية إمكانية للوصول إلى شبه الجزيرة الإيبيرية". قبل سنوات كان الوضع مختلفا، ويعني مارتينيز بذلك، عندما كان تهريب البشر منظما، وكانت هناك شبكة واسعة من المجرمين ورجال الشرطة. لكن هذا الوقت قد انتهى مع تأمين الحدود على ضفتي جبل طارق ومحاربة الفساد. فاسبانيا وحدها أنفقت مائتين وخمسين مليون يورو خلال الخمس سنوات الأخيرة على أمنها. والمغرب يحصل على أموال الإتحاد الأوروبي من أجل منع مرور المهاجرين إلى أوروبا. فبين سنة ٢٠٠٧ و ٢٠١٠ تلقى المغرب ثمانية وستين مليون يورو. واليوم تقوم سفن البحرية المغربية بدوريات على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط، وتقوم مراكز حراسة عسكرية في كل مكان لمنع أي خروج لزوارق الهجرة. وقد أثبتت هذه الإجراءات نجاعتها. وقد سجلت منظمة الهجرة التابعة للأمم المتحدة في الفترة بين يناير ويونيو هذه السنة فقط تسعمائة وعشرين مهاجرا من الذين وصلوا إلى إسبانيا، في حين وصل في الفترة نفسها أربعة وخمسون ألف مهاجر إلى إيطاليا وثمانية وأربعون ألفا إلى اليونان. ففي ليبيا لا يوجد بالفعل من يوقف زوارق المهاجرين المتجهة نحو إيطاليا، أما في اليونان فأغلب المهاجرين يدخلون البلاد قادمين من تركيا، فغير بعيد عن هذا البلد تقع الجزر اليونانية كما أن السلطات التركية لا تعمل إلا القليل فيما يتعلق بمحاربة تهريب البشر.

يتوافد يوميا على المغرب مهاجرون جدد، بالرغم من أن تحقيق أمل دخولهم إلى أوروبا ضئيل جدا وميؤوس منه. إن الذي يحمل بداخله أحلاما ذهبية، لا يريد معرفة الواقع. „البعض منهم يبقى هنا عشر سنين". يقول الأسقف مارتينيز ويتابع: „ومع ذلك يحاول هؤلاء المرة تلو الأخرى، لكن الرجوع إلى أوطانهم، أمر لا يمكن أن يتصوره أحد منهم. فلا أحد يريد أن يعيش العار والذل وأن يقال عنه في وطنه إنه فاشل". إن الضغوط الاجتماعية أصبحت كبيرة جدا، بعدما اضطرت عائلات لبيع قطيع غنمها أو لاقتراض المال. „وحتى لو طلب أحدهم الرجوع إلى وطنه، فإنه لا يملك المال للقيام بذلك". إنها حالة مأساوية، „إن هؤلاء الناس يركبون كل الأهوال ويخاطرون بحياتهم".

أما في ليبيا، فالوضع مختلف، فهناك على الأقل إمكانية حقيقية للوصول إلى إيطاليا، لكن ثمن المغامرة أكبر بكثير، حيث ينتظر الموت في البحر الكثير منهم، وعلاوة على ذلك فإن المتاعب والآلام التي تتسبب فيها الرحلة أكبر. إن المهاجر يدفع بين ألف وألفي يورو ليتم جمعه مع مسافرين آخرين يتراوح عددهم بين مائة وخمسمائة، حسب كبر وسعة السفينة. يتم تكديس المهاجرين رجالا ونساء وأطفالا في منازل مهجورة أو مخازن، وهنا عليهم انتظار موعد الذهاب وقد يدوم وضعهم هذا أياما بل أسابيع ويخضع للحالة الجوية ولدوريات المراقبة قرب الساحل. يوجد تلفزيون واحد لكل هؤلاء المسجونين وإذا حالفهم الحظ، فسيجدون أكثر من مرحاض، يستعمل في الوقت نفسه كحمام، ويحصلون على الطعام ثلاث مرات في اليوم.

„بعد أسبوع لم أتمكن من إغلاق الباب إلا بمساعدة كلب من نوع دوبرمان" يحكي لي مهرب قام خلال سنوات بإرسال العشرات من الزوارق إلى إيطاليا. „فمع مرور الوقت استبد بهم الغضب وأرادو فقط الخروج. لكن طبعا، لم يكن هذا ممكنا". لم يدم عمل هذا المهرب طويلا، لأن الإسلامويين الراديكاليين تدخلوا وأخذوا منه خمسين في المائة من المداخيل.

يعتقد كل الذين يعيشون في المخيم القريب من طنجة أنهم يمتلكون قدرات خاصة تبحث عنها أوروبا. بدءا من لاعبي الكرة „الممتازين"، مرورا بالطلبة، الذين يظنون أنهم يتمتعون بذكاء خارق ووصولا إلى الصناع اليدويين، الذين يؤمنون بأنه لا يوجد أحد يضاهيهم ويمكنه تقديم عمل أفضل منهم. وجميعهم يشير إلى جهاز التلفزيون، حيث شاهدوا هناك أن أوروبا بحاجة إليهم وأن كل واحد منهم ستتاح له فرصة كبرى. هكذا الحال في أوروبا كما يدعي أمادو. „لقد اتصلت عبر الإنترنت بألمان وفرنسيين ونرويجيين. كلهم قالوا لي أن الأمر ليس سهلا، لكن بالمثابرة والعزيمة يمكن للشخص الوصول إلى كل شيء". ويكرر أمادو تأكيده: „سوف أعمل حتى أهوي أرضا. حتى لو عملت أربعا وعشرين ساعة في اليوم". لا يوجد أحد يستطيع إيقافه، وهو مقتنع بأن الناس في أوروبا سيقدمون له يد المساعدة وأنه سيجد هناك سعادته.

ما هذا؟ أسذاجة؟ غباء؟ نقص في معرفة الأشياء؟ لا، لا يتعلق الأمر بنقص في المعرفة، فبإمكان الجميع استعمال الإنترنت ومشاهدة التلفزيون كما يفعل بقية سكان العالم. لكن ماذا حصل لأمادو وكردال والآخرين؟ تركوا كل حياتهم خلفهم. كان لديهم عمل، عائلة، منزل أو شقة. لم يكونوا أغنياء، لكنهم كانوا يأكلون ويعيشون تحت سقف بيت يحميهم. وكانت لأطفالهم إمكانية الذهاب إلى المدرسة. وفجأة بدا أن كل هذا لا قيمة له. يتخذون قرار الرحيل يوما ويسافرون لعدة آلاف من الكيلومترات. بينهم توجد نساء حبلى ورضع وأطفال. ويتعرض البعض منهم للتهديد والسرقة وتتعرض نساء للاغتصاب. إنهم يعلمون مسبقا أن كل هذا قد يحدث. يعيشون في طنجة أربعة أو أكثر في غرف صغيرة وفي أوضاع صحية سيئة، ويعيش قليل الحظ في العراء. يتجولون يوميا في الشوارع للتسول وهم في كل لحظة لقمة سائغة للشرطة المغربية. لا يعرفون البتة متى وهل سيصلون إلى أوروبا ومع ذلك تراهم متشبثين بقوة بحلمهم. تتحدث الباحثة في الهجرة غونزاليس أونريكيس عن «لاجئين اقتصاديين» وتعني بذلك المهاجرين الذين يطلبون تحسين فرص حياتهم „ولهذا يتوجهون إلى أوروبا لأن العمل هناك سيدر عليهم مالا أكثر ما كانوا يحصلون عليه في بلدانهم". قد يكون هذا صحيحا. بل حتى لبعض السوريين الذين يعيشون في طنجة. „هربنا من الحرب الأهلية عن طريق تركيا" يقول يوسف القادم من حلب وهو يتجول في شاطئ طنجة. لكن تركيا لا تعجبهم. „الأمان من الحرب شيء جيد، لكننا نريد أكثر". هكذا يتكلم رب أسرة، عمره خمسة وثلاثين عاما „يجب أن يحصل أطفالي على تعليم جيد، لذلك أطمح أن أتقاضى أجرا لائقا، لكي أقدم لأسرتي مستقبلا أفضل، حتى ولو كلفني ذلك ما لا يطاق".

لا يعيش يوسف، لا في مخيم في العراء، تحت الأشجار ولا في غرف صغيرة بدون ماء ولا كهرباء شأن الإفريقيين السود، بل في فندق، ويتمنى في أقرب الآجال أن يصل مع أسرته إلى سبتة. „إن ما يطلبه المهرب كثير، لكن حياتنا ستبدأ في سبتة". ويعرف يوسف أن السوريين يحصلون بسهولة على لجوء سياسي هناك، وهو ما لايمكن تصوره مثلا بالنسبة للأفارقة. إنهم يملكون الحلم نفسه، لكن جوازات سفرهم „خاطئة". لقد كانت ليبيا بالنسبة لهذا الأب من حلب خطيرة جدا، لذلك فضل مثل بضعة آلاف من مواطنيه اللجوء إلى المغرب. „رحلة بالطائرة من تركيا إلى الجزائر يوضح يوسف إنها الطريقة الأسهل".

التضحية بكل شيء

يمكننا وبدون تردد أن نعتبر كل هؤلاء لاجئين من أجل الحصول على فرص عمل أفضل وتحسين حالتهم المعيشية. لكن مثل هذا التصريح لا يعبر عن الواقع بكامله. طبعا إنهم يبحثون عن عمل ويريدون الحصول على مال أكثر مما كان متاحا لهم سابقا في بلدهم الأصلي. لكن هناك شيء آخر يجب أن نأخذه بعين

الاعتبار، إنهم يقتفون أثر حلم مثل كل الناس دون مراعاة للواقع ومحملين بصور سلبية. وهذا من حقهم أيضا. ومن أجل شوقهم ذلك، فهم مستعدون للتضحية بكل شيء. ويصعب علينا نحن الأوروبيين تفهم ذلك. فنحن يكفينا أن نحمل جواز سفرنا معنا، لتحقيق رغباتنا. نطير إلى جامايكا، أو كينيا، أو كمبوديا، أو أستراليا، أو البرازيل أو جزر العذراء. وهناك نعمل ما نريد وما نشاء. نتناول الحشيش. نمارس الجنس، نحب الإطلاع والفضول، نشاهد الحيوانات المفترسة، نمارس رياضة ركوب الأمواج، نقوم برحلات نهرية على امتداد الأمازون. وبالنسبة للانسان العادي في النيجر، التشاد أو السودان، كل ذلك غير ممكن. لكن هؤلاء الناس يريدون أيضا أن يعيشوا ذلك، وليس فقط أن يستمروا بالحلم به. البورجوازية المحلية في بلدانهم تستطيع ذلك، تسافر إلى باريس، لندن ونيويورك. لا يقبل المهاجرون أن يظلوا للأبد معذبين وملعونين، ومجبرين على العيش في افريقيا التي لا تقدم إمكانية الحياة الكريمة. „نريد أن نعمل كما نريد"، يوضح لي جيمي من نيجيريا مغتاظا ونحن في فندق رخيص في طنجة. „زوجتي ممرضة، وتحصل على مائة دولار في الشهر. إنه مبلغ يكفي فقط للبقاء على قيد الحياة وليس أكثر. ولا أريد هنا أن أتحدث عن معاشي كنادل في مقهى". إنهما الآن معا في طنجة من أجل تغيير هذا الوضع. „إنني أريد أن أحصل على أحد تلك الأجور الفاخرة التي تقدمها المستشفيات البريطانية" تقول كارين، زوجته. „حينها فقط يمكننا التفكير في إنجاب أطفال". إن الزوجان يشعران كما لو أن مستقبلهما قد سرق منهما، هما المحرومان من كل الأشياء الجميلة والجيدة في هذا العالم. إنهما يريدان عبر الهجرة تحقيق ما حرما منه. إنه عمل متمرد على كل الأصعدة. ففي أوروبا لا يمكن قبولهما إلا إذا كانا مطاردين سياسيا أو هاربين من صراع مسلح. أما أن يذهبا إلى هناك كمسافرين ويحلان بالأمكنة التي يريدانها، فهذا شيء غير مقبول. إنهما محرومان من حقهما في حرية الحركة. وكضحايا لحالة سيئة يمكن تفهمهما. لأن ذلك يتماشى مع الرؤية النمطية للأوروبيين بأن على الأفارقة أن يعانوا الأمرين، حتى يمكن مساعدتهم. أما ما عدا ذلك فلا يمكن تقبله. فبدون حاجة وبؤس لا يمكنهم أن يحظوا بتعاطف الأوروبيين ويتوجب عليهم حينها أن يظلوا في بيوتهم. „إلى أين سنصل، لو حضرت كل إفريقيا عندنا". إنه سؤال يمكن أن نسمعه في ألمانيا ليس فقط من العنصريين. وتؤكد ذلك الاحتجاجات التي تصدر عن الألمان في الأحياء التي اختيرت لإيواء المهاجرين. فالسود والعرب لا يحق لهم السفر، ناهيك عن الحصول على عمل، هناك حيث يطمحون إليه. „أجل، إلى أين سنصل مع كل هذه الأفواج من المهاجرين؟".

لكن أغلبية المهاجرين ليسوا معوزين، شديدي الحاجة. إنهم يتمسكون فقط بحقهم، مهما كلف الثمن. وهذا هو سلاحهم. يركبون قوارب خطيرة، بدون مبالاة ولا مراعاة لأجسامهم وحياتهم. قوارب خطيرة، لا يمكن لإنسان عاقل ركوبها ولو لخطوة واحدة. ولكن يتوجب التأكيد في هذا السياق بأن „المهاجرين ليسوا مدفوعين بقدرهم البائس والفقير"، كما نقرأ عادة في الصحف. لا، إنهم يختارون هذا الوضع طوعيا، لذلك فهم مسؤولون عن عملهم هذا. إنهم يعرفون منذ البداية أنهم معرضون للموت وأن نقودهم ستنفذ. وهنا يأتي الاستفزاز الثاني: „على أوروبا أن تساعدنا". هكذا يتكلم مادو وكردال في طنجة، وكأن هذا شيء طبيعي. لكن لماذا؟ بالنسبة للأوروبي لا يمكنه أمام هذا الوضع إلا أن يهز رأسه غير مصدق عينيه. لن أقوم اليوم برحلة إلى الخارج إذا عرفت أن مالي سينفذ. كما لا يمكنني أن أفكر بأن الحكومات التركية أو البلجيكية أو الكينية ستقدم لي المال أو أن أطالبها بذلك. „لا، أوروبا لا تتحمل وحدها ذنب بؤسنا في إفريقيا" يقول لي أمادو. إن الحكومات الإفريقية تتحمل كذلك مسؤولية بؤسنا. „لقد قام تهميشنا بشكل منهجي، لكنا لا نطالب سوى بحقنا".

ينقض اللاجئون الأعراف القائمة. الرسالة واضحة: نحن كلنا متساوون، وعليكم أن تعاملونا كناس عاديين كما تتعاملون مع بعضكم البعض في أوروبا. لدينا نفس الحقوق، لذا يتوجب عليكم أن تنقذونا من الغرق حين تحيق بنا مخاطر البحر. وساعدونا عندما نصل إلى اليابسة، لكي نبدأ حياة جديدة. لكن هذا كله كلام غير مقبول. أصاب اللاجئون أوروبا بالحيرة. فماذا يعمل الاتحاد الأوروبي بكل هؤلاء المهاجرين. ليس هناك مؤشر يدل على نهاية قريبة لتيار الهجرة. بل إنهم مستعدون وعلى الطريقة الانتحارية لتعريض حياتهم للخطر، إلى حد دفعت الحيرة الأوروبيين للتفكير في إرسال قوات تدخل عسكري إلى ليبيا واللجوء إلى القصف الجوي إن اقتضى الأمر. يجب القضاء على جماعات المهربين وشبكاتهم وأساطيلهم. لكن جماعات التهريب المنظمة هذه والتي يتم تحميلها مسؤولية المأساة التي يعيشها المهاجرون، لا وجود لها أساسا. فلا أحد في طنجة من المهاجرين دفع مالا للمهربين وهو في بلده ليركب الحافلة ويجرب حظه في أوروبا. إنه اختلاق يتم عبره التمويه على الأسباب الحقيقية للهجرة. وبدلا من أن يقنع السياسيون أنفسهم والناس بذلك، عليهم أن يعترفوا بأن المهاجرين أناس يريدون التمتع بحق المسكن وحرية التنقل كما هي الحال بالنسبة للأوروبيين. إن هذا سيكون الخطوة الأولى والحاسمة، وبعد ذلك يجب التفكير فيما قد يخلف ذلك من انعكاسات. إذ لا يمكن للقنابل والأسلاك الشائكة على الحدود والتي تزداد علوا مع الوقت، إيقاف أي حلم من الأحلام.

بعد أيام وجد كردال ووائل حلا للزوارق المطاطية القابلة للنفخ. إذ قرر أحد المغاربة أن يشتري لهما في سوق مرجان الكبير قاربا مطاطيا. وتمنيا أن يقوم بذلك فعلا وأن لا يهرب بنقودهما. وعندما يحصلان على الزورق، ستبدأ رحلتهما في رأس سبارطل، النقطة التي يلتقي فيها المتوسط بالأطلسي، فمن

هنا يريدان الدخول إلى البحر. أما الجذعية المخصصة لخمسة أفراد آخرين، فقد تم الحصول عليها. وإذا حدث وألقي القبض عليهم، فلن يحدث شيء لهم. سيذهبون إلى مركز الشرطة ويتم تسجيل معلومات عنهم، وبعد ثلاث ساعات يطلق سراحهم. وبعد ذلك مباشرة تبدأ اللعبة من جديد. كيف سيحصل كردال ووائل على زورق مطاطي من جديد؟

ألفريد هاكنسبيرغر من مواليد ١٩٥٩، صحفي وكاتب ألماني يعيش في طنجة ويعمل مراسلا لجريدة «دي فيلت» اليومية. من إصداراته: «الأيام الأخيرة في بيروت». وقد صدر هذا النص في مجلة كورتبوخ، سبتمبر ٢٠١٥.

ترجمة: رشيد بوطيب

■ الزمان هو بداية شباط/فبراير والمكان نزل لطالبي اللجوء يعيش فيه ٢٩٤ شخصا. الطقس بارد وهناك بضعة لاجئين سوريين وعراقيين يدخّنون أمام مدخل النزل، الذي يبدو كخيمة هائلة صنعت من بالون ثخين نُصبت على ملعب رياضي لا يبعد أكثر من كيلومترين عن مبنى المستشارية في برلين. عالم غرابوفاك زار النزل وأجرى المقابلة التالية مع دراغانا دوريك وماتياس هامان المشرفين عليه.

الأفكار النمطية ليست بشرا

مقابلة مع مشرفَين على نزل للاجئين في برلين

عالم غرابوفاك ALEM GRABOVAC

أعدّ هذا المأوى ليقيم فيه اللاجئون بضعة أيام فقط، لكنّ بعض العائلات مازالت تعيش هنا منذ عدّة شهور. يقوم رجل أمن ببدلة سوداء بفتح البوابة الأولى التي تُفضي إلى بوابة داخلية يجب أن تظل مغلقة كيلا يتسرّب الهواء فيخفّ ضغطه داخل «الخيمة البالونية» ما يمكن أن يؤدّي إلى انكماشها كما يحدث بالبالون إذا أخلي هواؤه. والسبب هو أن الضغط العالي للهواء داخل الخيمة هو ما يبقيها منصوبة. قريبا من المدخل كان في انتظاري دراغانا دوريك وماتياس هامان، اللذان يديران هذا الملجأ النزل الذي تشرف عليه مؤسسة «شْتَتْمِسيون» البرلينية التابعة للكنيسة الإنجيلية بتكليف من الدولة.

الجو في الداخل يطغى عليه ضجيج أغلبه صادر عن أطفال يلعبون هنا وهناك. قسم المنامة يقع على اليسار وهو موزّع على غرف صغيرة في كل منها ستة أسرّة متراكبة. القسم المشترك يقع على اليمين حيث توجد زاوية للعب الأطفال وكرة طاولة وزاوية للطعام فيها مقاعد خشبية طويلة تشبه تلك التي نراها في الأعياد والاحتفالات العامة في شوارع المدن الألمانية. ثمة حجرات ثلاث خاصّة يمكن اعتبارها «مستوصفا» من أجل العناية الطبّية وثمانية مرافق صحّية وحجرة صغيرة للغسيل بالإضافة إلى مسجد صغير. هناك جدران رقيقة تفصل الحجرات المختفة عن بعضها، وقد عُلّقت عليها رسومات أطفال وترجمات للكلمات الألمانية الأكثر استخداما إلى الكثير من اللغات. ندخل إلى غرفة الإدارة من أجل إجراء هذه المقابلة. ورغم إغلاق الباب فإن المرء يستطيع بالكاد أن يسمع ما يقوله هو شخصيا. إذ أن الجدران الفاصلة رقيقة جدا وليس هناك سقف يخفّف قليلا من الضجيج الهائل في القاعة الكبيرة.



لوحة إرشادات مؤقتة في مركز «لاغيزو» لتسجيل اللاجئين في برلين.
Photo: Achim Wagner

عالم غرابوفاك: لماذا كل الضجيج والصخب هنا؟

ماتياس هامان: لا شك أنه أفضل من السكون. فنحن يسرّنا جدا أن نرى أطفالا يلعبون.

دراغانا دوريك: تعوّدت على الضجيج فلم أعد أسمعه أبدا.

يعيش في هذا السكن ٢٩٤ إنسانا. فإذا وزّعنا مساحته على سكّانه بكم سيحظى كل شخص منهم؟

هامان: ثمانية أمتار مربّعة.

هل يستطيع الفرد في هذا الحيّز الضيّق ممارسة خصوصيّته؟

هامان: الأمر نسبي ويعتمد الحكم فيه على موضوع المقارنة. فهنا يتمتّع الساكن بحيّز خصوصية أكبر من ذلك الذي يتمتّع به الساكن في قاعة رياضية. ولا ننس أن ثمة تسعا وستّين قاعة رياضية تمّت مصادرتها ليسكنها اللاجئون. الطريقة الوحيدة التي يمكن للساكن في تلك القاعات أن يتّبعها ليختلي بنفسه هي أن يمدّ غطاء ما على السرير ذي الطابقين. لكنّ المقارنة مع الفنادق، حيث قد تخصّص غرفة لشخصين أو ثلاثة أو أربع، هي لصالح الفندق. أمّا بالمقارنة مع الشقّة العادية فلا شك أن الشعور بالخصوصية عندنا أقل بكثير. إذن فالمسألة تتعلّق بزاوية النظر والمقارنة.

لقد رفض نوّاب حزب الخضر المعارض في برلمان الولاية (ولاية برلين) الإيواء في الخيم البالونية كهذه. وكان سبب الرفض غياب مجال لاختلاء الفرد بنفسه والشعور بخصوصيّته بالإضافة إلى قلة المرافق الصحية. وهو ما اعتبروه خرقا لبعض لحقوق الإنسان الأساسية.

دوريك: إن انطباعي هو أن الناس هنا راضون جدا. بل إن بعض العائلات التي تعود إلى زيارتنا تبدي رغبتها بالعودة إلى السكن لدينا.

هامان: يجب أن يوجد دائما من يطالب بعالم أفضل. إننا نبذل أقصى جهدنا لفعل كل ما هو مستطاع. فنحن نقدّم دورات لغة ألمانية. كما أننا جهزنا زاوية خاصة للعب الأطفال ونساعد في تعبئة الاستمارات ونؤمّن العناية الطبية.

ما هي جنسيات اللاجئين عندكم؟

دوريك: الأكثرية سوريون ثم يأتي العراقيون ثم الباكستانيون ثم الأفغان. في الصيف الماضي كان يأتي الرجال وحدهم على الأغلب. أما الآن فالكثير من العائلات تأتي من تلك البلدان.

كيف تقيّمون التركيبة الاجتماعية ومستويات التعليم لدى اللاجئين؟

هامان: لدى خمسة وعشرين بالمائة من اللاجئين شهادات جامعية وفق دراسة للمديرية الاتحادية لشؤون للهجرة واللاجئين. وينتمي الأكثرية ممّن يسكن عندنا إلى الميسورين. ولكن ليس كل ميسور متعلّم. يكلّف الهروب من سوريا إلى برلين ما بين الألفين والستة آلاف دولار لكل شخص. أما من أفغانستان فالتكلفة أكبر. فمن الواضح أن هؤلاء الناس ليسوا فلاّحين معدمين. لكن العامل الحاسم في تقرير مستقبل هؤلاء هو طموحهم قبل كل شيء. في رحلتهم الأولى من بلدانهم إلى هنا كان هدفهم هو مجرّد الصمود في وجه مخاطر الطريق حتّى نهايته. أما الرحلة الثانية التي تبدأ بعد الوصول فهي أكثر تحديّا لأنّها تكلّف الفرد هويّته القديمة. لقد كان هذا اللاجئ محاميا أو بروفيسورا أو نجّارا أو صناعيا أو خبّازا. لكنّه في مرحلته الأولى هنا لا شيء من ذلك كله. وعليه أن يبدأ بشقّ طريق جديد تماما وأن يُبدع هويّة جديدة. إنه التحدّي الأكبر. ولذلك فمن المهم جدا أن تتوفّر لديهم الدوافع والقوة الكافيتان لتعلّم لغة جديدة والتأقلم مع ثقافة جديدة ليبدأ حياته من نقطة الصفر.

هل يريد اللاجئون العودة إلى أوطانهم يوما ما أم البقاء هنا؟ ماهو انطباعكم؟

دوريك: يقول الكثيرون أنهم سيعودون إلى أوطانهم بمجرّد انتهاء الحرب فيها.

هامان: أعتقد أن لدينا ثلاث مجموعات مختلفة في هذا الصدد. المجموعة الأولى يريد أفرادها البقاء. إنهم يعرفون قانون اللجوء جيّدا ويعرفون أن المرء تحق له الإقامة الدائمة بعد ست إلى سبع سنوات. إنهم طموحون. يتعلّمون الألمانية ولا تقتصر علاقاتهم على الوسط العربي، بل يبحثون عن أصدقاء يتحدّثون معهم بالألمانية. إنّهم يعتبرون حياتهم هنا فرصة جديدة. وهناك مجموعة أخرى تريد العودة. الكثير من العراقيين، وخاصّة الأكراد منهم، عادوا فعلا. لكنّ ثمة مجموعة تقع ما بين هاتين. إنّهم أولئك المتردّدون الذين يبقون هنا لأن ظروفهم سارت بهذا الشكل. فقد يكون لديهم أطفال أو أنهم ينجبون هنا أطفالا يذهبون إلى المدرسة وتصبح ألمانيا هي وطنهم. إنّهم يضربون هنا بجذورهم. هذه الفئة من اللاجئين ستبقى هنا رغم أنها لا تعرف ذلك بعد.

هل تعطينا صورة عن إيقاع الحياة اليومي في مأوى كهذا؟

هامان: يبدأ التحضير للفطور في الخامسة والنصف صباحا. ثم هناك الغداء والعشاء. في الساعة الواحدة ليلا تنهي آخر مشرفة اجتماعية نوبتها. وهكذا.

دوريك: ننظّم خلال النهار الكثير من النشاطات التي يستطيع الناس هنا المشاركة فيها، منها: كرة القدم ودورات اللغة الألمانية (نؤمن العناية بالأطفال خلال ذلك) ولقاءات بيننا وبين السكّان ورحلات إلى المدينة. يدعمنا في هذه النشاطات الكثير من المتطوّعات والمتطوّعين.

كم هو عدد المتطوّعين الذين يعملون هنا؟

هامان: لدينا احتياطي متطوّعين يبلغ ١٦٠٠ متطوّع لهذا المأوى فحسب. لكن ثمة ملاجئ أخرى لديها ٣٠٠٠ بل وحتى ٥٠٠٠ من الداعمين. يمكن لأي راغب أن يسجّل اسمه في أية قائمة للمتطوّعين في المجال الذي يرغب بتقديم المساعدة فيه. لدينا ١٥ إلى ٣٠ متطوّعا كل يوم: إنهم يوزّعون الطعام أو يعتنون بالأطفال أو ينظّفون أو يعلّمون الألمانية أو يتبادلون الحديث مع اللاجئين.

ما هو دافع هؤلاء؟ لماذا يضحّون بوقتهم من أجل اللاجئين؟

دوريك: لا يضحّي متطوّعونا بوقتهم. إنهم يعتقدون أن مساعدتهم لها مغزى.

هامان: لقد شاهدوا صورا لما يحدث في تلك الحروب فقرّروا أنّ مساعدة أولئك البشر ضرورة واجبة. لدينا هنا متطوّعون ومتطوّعات للمساعدة وهم ينتمون إلى كل الفئات العمرية والاجتماعية. فهناك طلاب وتلاميذ وموظفون ومحامون ومتقاعدون. إنهم يحصلون على جواب للسؤال „لماذا أساعد هنا؟” في العينين الشاكرتين للطفل الذي يلعبون معه أو يقدّمون له الطعام. آخرون يريدون من خلال ذلك أن يعلنوا موقفا. إذ أنّ وقوفهم هنا في المطبخ يقول للعالم إن اللاجئ مرحّب به هنا، في الوقت الذي يخرج فيه الكثيرون في مظاهرات مضادّة للاجئين.

تتردّد أخبار عن متطوّعين أصابهم انهيار عصبي أو نفسي. كيف الحال عندكم بهذا الخصوص؟

هامان: لم يحدث عندنا شيء من ذلك. وإن كان متطوّعونا وموظفونا قد واجهوا فعلا تحديّا كبيرا في الصيف الماضي، عندما كان لدينا هنا خمسون لاجئا فقط، رغم أن المكان يتّسع لـ ٢٩٤ شخصا، وكان الكثير من اللاجئين القادمين حديثا يضطرّون إلى المبيت في العراء أمام المكتب، الذي يقوم بتسجيلهم كلاجئين رسميّين ليستطيع البدء بإجراءاته الأولية بما فيها توزيعهم على الملاجئ. والسبب هو أن ذلك المكتب ـ أي المكتب الاتحادي للشؤون الصحية والاجتماعية ـ لم يكن مجهّزا لاستقبال تلك الأعداد الهائلة منهم، إذ كان عدد موظّفيه محدودا جدا. كان مكتب التسجيل المذكور لا يبعد عن هذا المكان سوى دقائق معدودة مشيا على الأقدام، فقرّرنا أن نحضر أولئك اللاجئين إلينا في الليل كي لا يناموا هناك في العراء. كان ذلك يستدعي جهدا كاد يتجاوز حدود الاستطاعة لبعض أفراد فريقنا، لكنّه ساهم بتطوير قدراتهم أيضا. يفخر المرء بالعمل مع فريق كهذا بمتطوّعيه وموظّفيه.

ماهي المشاكل الملموسة التي تحدث هنا؟ هل وقعت مشاجرات واشتباكات بالأيدي كما حدث في الملاجئ الأخرى؟ وهل وقعت صدامات بين السكّان على خلفية دينية؟

هامان: مرّ على هذا المأوى ثلاثة وعشرون ألف شخص. ولذلك فمن الطبيعي أن تحدث بعض المشاكل بين الفينة والأخرى. والأسباب مختلفة، فقد يكون مسبّبو المشاكل من النوعية الصعبة فعلا. قد تعزو ذلك إلى التجارب القاسية التي مرّوا بها أو تلك الظروف الصعبة التي يمرّون بها الآن. وقد كنّا نضطرّ أحيانا لحظر دخول البعض بشكل نهائي وإبلاغهم ذلك رسميا.

في بعض الملاجئ الأخرى وقعت مشاكل بين العرب والأفارقة السود أو بين المسلمين والمسيحيين. هل يختلف الأمر هنا؟

دوريك: لقد أعلنّا من البداية أننا يمكن أن نتفهّم كل شيء باستثناء العنصرية. إننا لا نفرّق بين الناس وفق أديانهم أو جنسيّاتهم. الكل لدينا سواسية.

هامان: عندما يريد الإنسان أن يبحث عن المشاكل فسيجد سببا بالتأكيد. سواء أكان مسيحيا أم مسلما، عراقيا أم سوريا أم ألمانيا أم غير ذلك. لا فرق. لقد أقمنا على سبيل المثال احتفالا بعيد الفطر هنا. وحضّرنا له أسابيع عدّة بالتعاون مع أحد المساجد وكانت النتيجة رائعة فعلا. لكنّ مشاجرة بالأيدي وقعت بين بعض اللاجئين بسبب صحن بقلاوة. الحكم هنا يعتمد على طريقتي في النظر إلى الأمور: هل أقول أن مشاجرة وقعت بين البعض واستمرت خمس دقائق، أم أقول أن مائتين وتسعين شخصا احتفلوا بعيد الفطر بسلام؟

كيف يعامل اللاجئون الذكور النساء من اللاجئات والمتطوّعات؟

دوريك: هؤلاء الناس أكثر انفعالية ومزاجية من الألمان. يبالغون مثلاً في توجيه تعابير الإعجاب، لكن ذلك ليس مشكلة. يصعب عليهم في البداية أن يصدّقوا بأن النساء هنا لهنّ الأهميّة نفسها، ولذلك فهم يفضّلون التوجّه إلى الرجال بأسئلتهم. لكنّهم يفهمون بسرعة أن الأمر هنا لا يمكن أن يسير بهذه الطريقة، وأن عليهم أن يتوجّهوا إلى النساء أيضا عندما يحتاجون إلى استشارة ما. أستطيع القول بشكل عام إنني أشعر بأنهم يعاملونني باحترام.

هامان: لو لم يكن الأمر كذلك لما واظب هذا العدد الكبير من المتطوّعات على المجيء والمساعدة. دعني أقرأ لك أسماء المتطوّعات لهذا الأسبوع: سوزانه، ألينا، جوانا، لوسيل، إميلي، فاطمة، صوفيا، فرانسيسكا، جيل، كريستينا، نينا، راحيل، أميليا، إلينا، مياو، يوليا، فالتراود... الخ. لو كان يوجد حقّا مشاكل دائمة مع الرجال لما عاودن المجيء إلينا تطوّعا. نعرف أن الكثيرين من اللاجئين نشأوا في مجتمعات أبوية ولديهم الصورة المتخلّفة عن المرأة التي كانت لدينا هنا في ألمانيا قديما. لكنّ المرء يستطيع أن يشتغل على هذه الصورة ويغيّرها. ثم علينا ألاّ نعمّم. إن كان البعض يسبّبون المشاكل فلا يعني هذا أن الجميع مذنبون.

حصلت اعتداءات جنسية وحالات تحرش ببعض النساء ليلة رأس السنة في كولونيا، ويعتقد أن من قام بذلك رجال من شمال أفريقيا أو من اللاجئين. هل يحتاج اللاجئون إلى قواعد للسلوك؟

هامان: قواعد السلوك المُلزِمة لنا موجودة في الدستور والقانون الأساسي. وعلى الجميع الالتزام بها، سواء أكان ألمانيا أم لاجئا. أكرّر: من بين العاملين لدينا هذا الأسبوع إمرأة أفغانية ملحدة وُلدت في فلسطين وإمرأة فرنسية وواحدة إيطالية كاثوليكية وأخرى تركية مسلمة وثانية يهودية إسرائيلية. الكل يعمل في فريق واحد في ملجأ تشرف عليه مؤسسة مسيحية. لن تفعل كل هؤلاء النسوة ذلك لو كان الرجال هنا يقومون بما يهينهنّ.

إذن فكل ذلك تخويف فقط؟

هامان: لا أنكر، بل أؤكد أن هؤلاء اللاجئين يحتاجون إلى دورات في الاندماج، لا اللغة فحسب، وإلى معالجة الصدمات النفسية التي تعرّضوا لها. ولا شك أن أحداث كولونيا التي ذكرتها هي أمر لا يمكن التسامح معه ويجب القبض على مرتكبيها وفق القانون. لكنّ التعميم بالقول إن كل اللاجئين والآتين من شمال أفريقيا لا يحترمون النساء هو كالتعميم القائل أن كل الألمان نازيّون جدد لأن البعض منهم قاموا بإلقاء عبوات حارقة على معسكرات اللاجئين.

هل واجهتم أية مشاكل أو احتجاجات من الأهالي فيما يتعلّق بالملجأ أو اللاجئين؟

هامان: يأتي إلينا موظّفو أحد المكاتب المعمارية القريبة كل يوم الساعة السادسة والنصف صباحا من أجل المساعدة في تحضير الفطور وتوزيع الطعام. وكانوا قد سألونا في العام الماضي عن الطريقة التي يمكن لهم فيها تقديم المساعدة. ورغم أنني لا أدّعي أن الأمور تسير بنفس الطريقة في كل مكان، إلاّ أننا نلقى دعما كبيرا من الجيران بلاشك.

هل ثمة ما يثير غضبكم فيما يدور من نقاش حول اللاجئين في الإعلام والفضاء العام؟

هامان: تسيطر الأفكار النمطية على هذا النقاش. فاللاجئون ليسوا طفيليّين يريدون العيش على حسابنا والاعتداء على نسائنا وسرقة فرص العمل منّا من ناحية، ولا كلّهم ضحايا الصدمات النفسية الذين لا تعني لهم ألمانيا بحد ذاتها شيئًا من ناحية أخرى. والأمر المُزعج فعلا هو أن هذا الاستقطاب الحاد الذي يسود جزءا كبيرا من مساحة النقاش. فعندما أقول مثلا إنّا نحظر الدخول إلى هذا الملجأ على الكثيرين يعلّق أحد الفريقين بأنّهم يعرفون ذلك منذ البداية. أمّا عندما أقول أن البعض لدينا يعاني من صدمات نفسية ممّن ينتظرون يوميا منذ شهور أمام مكتب تسجيل اللاجئين دون أن يحصلوا على المساعدة المالية يعلّق الفريق الآخر بأنّ الدولة فاشلة ولا تهتم بالمحتاجين بما فيه الكفاية. لكنّ الأفكار النمطية ليست بشرا. ليس هناك لاجئ نمطي. إنهم بشر يختلفون من حيث الشخصية والطبيعة كما يختلف سكّان هذا البلد الآخرون. المسؤولون عمّا حصل في كولونيا هم أحد هذين النمطين وأولئك الأطباء السوريّون التسعة والعشرون الذي يعملون في مشفى هم نمط آخر. لكنّ هذا التنميط لا يفيدنا في شيء. فالقسم الأعظم من البشر هم في الوسط بينهما وعليهم أن يكافحوا من أجل خلق الدافع الكافي لإخراجهم من تلك الثغرة السيكولوجية أو الفراغ النفسي الذي يتخبّطون فيه. لكنّ هذه الإشكالية بالذات تغيب تماما عن النقاش العام.

ما هي القضايا التي يجب أن نعالجها إذن، برأيكم؟

هامان: كيف يمكن أن ندمج هـؤلاء البشر في مجتمعنا؟ كيف ننجح في إعادة تنظيم حياتهم من جديد في هيكلية مناسبة؟ إذا أردنا أن نتجنّب تكرار ما حدث في كولونيا فعلينا أن نفكّر في الطريقة التي نمنح فيها هؤلاء الناس أملا في حياة جديدة وفرصا لتحقيق ذلك. يجب علينا أن ننظر إليهم كبشر عاديين تماما لديهم ديناميكية نفسية نستطيع بدعمنا أن نجعلها خلاّقة لكنّنا نستطيع أن نطالبهم بما نريد أيضا.

كيف يبدو ذلك في التطبيق العملي؟

هامان: دعني أكرّر: يحتاج اللاجئون إلى أن نفتح أمامهم آفاقا جديدة، فرصا وإمكانيات. لكنّهم هم من يجب أن يرى ويدرك تلك الفرص. وذلك غير ممكن إن لم يستطيعوا فهم اللغة. ولأن القادمين الجدد من طالبي اللجوء لا يملكون الحق في دورة لغة المانية قبل أن يستكملوا إجراءات قبولهم نقوم نحن هنا داخليّا بتقديم تلك الدورات يوميّا ومنذ البداية. أما خارجيّا فقد أمّنّا لهم إمكانية حضور دورة لغة أخرى منتظمة في مدرسة «كورت توخولسكي» المجاورة مع إمكانية الاعتناء بأطفالهم خلال الدروس. إننا لا نجبر أحدا على ذلك طبعا، لكنّنا نعرض المساعدة على من يريدها. عندما عرضت علينا المدرسة الخاصة «الثانوية الأوروبية» منحتين لشبابنا قدّمنا دعما مكثّفا لشابّين اجتهدا بشكل خاص وكانت النتيجة أنهما حصلا على المنحتين فعلا. ونحن ننسّق مع الشركات أيضا. فهناك شركة لإنتاج وتوصيل الطعام قريبة من هنا تقوم بالطهي مع اللاجئين عندنا. كما أن ثمة متدرّبات من طالبات علم النفس يعملن معهم أيضا. ثمة مدراء شركات زارونا لمدة أسبوع كامل وعملوا معنا أيضا. ثم إننا ننظّم لقاءات مع الأهالي: كل سبت وأحد تقام هنا جلسة «محادثة مع القهوة والكعك». الكعك يحضره الآخرون ونحن نقدّم القهوة. قد يصل عدد المشاركين في هذه الجلسة المائة شخص يتبادلون الحديث بعفوية وبساطة. تزورنا شركات كبيرة ورعويات صغيرة

أو أشخاص لا صفة رسمية لهم. هذه هي الطريقة التي ينجح فيها التقارب بين الناس. وبهذا الشكل فقط ينجح الاندماج. علينا أن نفعل كل شيء من أجل فتح الآفاق لهؤلاء الناس.

دوريك: يزورنا أيضا أشخاص عرب أو ممن يتحدثون العربية ونجلس مرة في الأسبوع مع اللاجئين لنناقش ما يرغبون به وما نطلبه نحن أيضا. ونحن نسجّل محضرا بكل ما يتم نقاشه ونعلّقه على الجدار. كما أقمنا مرة معرضا للوظائف المتاحة.

كيف تودّون وصف المزاج العام في ألمانيا حاليا؟

هامان: ثمة من ناحية حالة الترحيب والمساعدة، التي أصبحت ثقافة دائمة وعلى نطاق واسع، ومن الناحية الأخرى الخوف غير واضح المعالم على الهوية من تأثير الأجانب. لكن حتى هذا النقاش العام مازال مطبوعا بالأفكار النمطية. إذ ما زال يسوده الاستقطاب بين المؤمنين بالتعدد الثقافي من ناحية والمتشكّكين العنصريين من ناحية أخرى. هذه الكليشيهات لا تقدّمنا خطوة واحدة إلى الأمام.

المستشارة أنغيلا ميركل تقول إنها واثقة بالنجاح في هذه المهمّة (استقبال اللاجئين) لكنّ ستين في المائة من الألمان يعتقدون أننا لم نعد نستطيع ذلك. مارأيكم؟

هامان: السؤال هو: ماذا نستطيع أن نفعل؟ هناك حكاية تروي أن طفلا كان على الشاطئ وقت الجزر فرأى الكثير من نجوم البحر مرمية على الرمل فأخذ يرميها في الماء ثانية. عندها مرّ رجل ورأى ما يفعل الطفل فقال له: لا فائدة فيما تفعل لأن نجوم البحر كثيرة جدا ولن تستطيع إنقاذها كلها. هنا أمسك الطفل بنجمة بحر ورماها في الماء وقال: لكنّني أنقذت هذه على الأقل.

بلغ عدد اللاجئين في العام الماضي مليونا. وقد يأتي هذا العام مليون آخر. هل نحتاج إلى تحديد سقف لعدد القادمين؟ ما هو عدد الناس الذين يستطيع مجتمعنا استيعابهم ودمجهم؟

هامان: ما هو مقياس النجاح؟ أن يتم دمج كل المهاجرين دون استثناء؟ لا شك بأن ذلك مستحيل. أم أن المقياس هو ألاّ يظل عندنا أي نازي يكره الغرباء؟ هذا أيضا لن يتحقّق. لكن هل معنى ألاّ نحقّق هذين المطلبين أننا فشلنا؟ هل هذه هي القضية بالأساس؟ أفضّل أن يكون سؤالنا عن كيفية إنجاز هذه المهمّة وليس عن حظوظ نجاحها. ثم ألم ننجح في التعامل مع المهاجرين الذين جئنا بهم كأيدي عاملة في الماضي؟ فلماذا لن ننجح هذه المرّة؟ الآن لدينا سياسيّون وسياسيّات من أبناء هؤلاء المهاجرين منهم ديليك كولات وأوزجان موتلو وجيم أوزديمير، ومثقّفون كنويد كرماني، الذي ألقى خطبة أمام البونديستاغ في الذكرى الخامسة والستّين لوضع القانون الأساسي الألماني (الدستور). لدينا أشخاص لا يُدعون سابينه مولر أو مارتين شميدت وقد ساهموا بصياغة شكل هذا البلد. إنهم أمثلة تدلنا على أن ذلك ممكن.

دوريك: طبعا ليس معنى ذلك أن المهمة سهلة. لكنّها ممكنة وسننجزها. ولم لا. كل ما يلزمنا هو أن نقوم جميعا بفعل شيء من أجل ذلك.

عالم غرابوفاك كاتب وصحفي يقيم في برلين.

ترجمة: حسين شاويش

■ ليست الهجرة بالظاهرة الحديثة، بل هي جزء لا يتجزأ من الكينونة البشرية، وتمتد جذورها في أوروبا أيضا عبر تاريخ طويل. يصنف هذا المقال ليوخن أولتمر، الباحث في شؤون الهجرة، ظاهرة الهجرة حسب التسلسل التاريخي ويساعدنا على تقييم الأحداث الراهنة على نحو أفضل.

المسيرة الطويلة

أوروبا في قلب الهجرة المعولمة

يوخن أولتمر JOCHEN OLTMER



صورة لمصور مجهول من حلب عام ١٩٢٣، تبادل السكان بين اليونانيين والأتراك.

منذ بداية تاريخ البشرية والهجرة تمثل محورا جوهريا في عملية التحول الاجتماعي. ولذا فإن اعتبار الحركات المكانية للسكان، وإن كانت لمسافات طويلة، ظاهرة من ظواهر العصر الحديث، يعد دربا من الأساطير. حيث تسنى اقتفاء أثر موجات ضخمة من الهجرة العالمية حتى في وقت سابق لتطور وسائل النقل الجماعي الحديثة. فالإنسان في مرحلة ما قبل الحداثة لم يكن يميل كثيرا للاستقرار، على عكس حاله في مرحلة ما بعد الحداثة. وكذلك من غير المعقول أن يعتقد البعض أن الهجرة في الماضي اتخذت شكلا خطيا، أي هجرة دائمة من مكان إلى مكان بهدف الاستيطان الدائم: فأشكال الهجرة المختلفة، من هجرة مرتدة ودائرية ومتأرجحة، ظلت من السمات المميزة لسلوكيات الهجرة العالمية، الإقليمية منها والمحلية في الماضي والحاضر على حد سواء. كما أن المهاجرين لم ينتقلوا إلى عالم غريب عليهم كليا، سواء في الحاضر أو في الماضي، بل إن الانتقال في إطار شبكات احتل جزءا محوريا من تاريخ الهجرات وحاضرها. وعلى مر القرون الماضية لم تطرأ أية تغييرات تُذكَر على تلك الهجرات من حيث شروطها الأساسية وأشكالها.

يمكننا التحدث على نطاق أوسع، أو بالأحرى على نطاق واسع، عن الهجرة العالمية منذ بداية توسع أوروبا سياسيا وإقليميا وكذا ثقافيا واقتصاديا إبَّان القرن الـ ١٥. وظلَّت هجرة الأوروبيين إلى بقاع أخرى من العالم بين القرنين الـ ١٦ و ١٩ متوسطة الحجم، إلا أنها أدت فيما بعد، وحتى بدايات القرن الـ ٢٠، إلى حدوث تحول بعيد المدى في إطار البنية السكانية، لاسيما في الأمريكتين وفي جنوب المحيط الهادي، بل وكذلك في أجزاء من أفريقيا وآسيا. وفي نهاية القرن الـ ١٩ ومطلع القرن الـ ٢٠، ومع بلوغ هجرة الأوروبيين ذروتها، بدأ في الوقت نفسه تاريخ أوروبا كقارة مستقبلة للهجرة.

في أواخر ثمانينيات القرن الماضي كشفت بحوث الهجرة التاريخية عن طيف واسع من حركات الهجرة، وأصبح الآن بإمكانها تجسيد مسارات الهجرة وتطورها على مدار عقود وقرون. وإنه لمن الضروري أخذ تلك المسارات في الاعتبار ليتسنى لنا فهم وتفسير سلوكيات وأنماط الهجرة في الوقت الحاضر. تتناول الدراسة التالية الظروف والأشكال والعواقب المرتبطة بالحركات المكانية للسكان والتي انطلقت من أوروبا منذ القرن الـ ١٦. كما

تبحث خلفيات تحوُّل أوروبا إلى قارة مستقبلة للهجرة. ويهدف المقال من خلال ذلك إلى الكشف عن دور أوروبا البارز في أحداث الهجرة العالمية التي يشهدها العصر الحديث، وتسليط الضوء في الوقت نفسه على طبيعية ونظامية حركات الهجرة واسعة النطاق وطويلة المدى عبر التاريخ.

بداية ذات عواقب بعيدة المدى

يشير مصطلح «الهجرة» إلى الحركة المكانية للإنسان. ويُقصَد به أنماط الانتقال الإقليمية التي تؤثر على المسارات الحياتية للمهاجرين على نحو بعيد المدى، والتي تسفر عن تغييرات في المؤسسات الاجتماعية. قد يشير هذا المصطلح إلى عبور الحدود السياسية والإقليمية وما يترتب عليه من استبعاد من مجتمع قانوني والانضمام إلى آخر. كما قد ينم عن تلك الحركات المكانية التي تتم في إطار الكيان السياسي والإقليمي. فهي تدفع المهاجرين والمهاجرات إلى التعامل مع معطيات ونظم اقتصادية وكذا مع أنماط ثقافية ومعايير وهياكل اجتماعية مختلفة (إلى حد بعيد)، وإلى تحقيق أو اكتساب فرصة للمشاركة في مختلف المجالات الاجتماعية الوظيفية. وعلى الرغم من أن الحركات المكانية التي حدثت في إطار التوسع الحضري، لاسيما منذ أواخر القرن الـ ١٨، لم تكن في مجملها أكثر من انتقال مكاني في إطار الإقليم أو الدولة، إلا أنها وضعت المهاجرين أمام تحديات بعيدة المدى إزاء الاندماج في أقسام وقطاعات اقتصادية أخرى (قطاع الصناعة أو الخدمات في مقابل قطاع الزراعة) ووضعت الهجرة في مواجهة نماذج مختلفة من الأشكال الحياتية (من حضرية إلى ريفية) والمواقف والتوجهات.

ربما أشارت الهجرة أحادية الاتجاه إلى الانتقال من مكان إلى آخر بشكل عام، إلا أنها اشتملت في الكثير من الأحيان على أهداف ومراحل بينية تخدم جميعها نفس الغرض، وهو اكتساب الأموال اللازمة لاستكمال الرحلة. ظلت عملية الهجرة غير محددة النتائج في المجمل، وبالتالي لم يعد الاستيطان الدائم في مكان آخر سوى نتيجة من النتائج المحتملة المترتبة على حركات الهجرة: ففي ألمانيا على سبيل المثال نمت أعداد القوى العاملة الوافدة من الخارج من ٥٥٠،٠٠٠ نسمة في عام ١٩٦١ إلى ٢،٦ مليون نسمة في عام ١٩٧٣، أي عندما توقف توظيف العمالة الأجنبية. مع العلم أن حجم الهجرة في هذه الفترة كان كبيرا، فنجد أن ألمانيا استقبلت نحو ١٤ مليون عامل أجنبي بدءا من أواخر خمسينيات القرن الماضي وحتى عام ١٩٧٣، بينما عاد قرابة الـ ١١ مليون، أي ما يوازي ٨٠ بالمائة، إلى بلادهم مرة أخرى.

سعى المهاجرون والمهاجرات في كثير من الأحيان إلى توفير سبل للعمل والاستقرار وتحسين فرص التعليم من خلال الإقامة الدائمة أو المؤقتة في بلاد أخرى. أي أنه كان من شأن الحركات المكانية أن تمنح المهاجرين في تلك الحالات سلطة تصرف أكبر. إلا أنه كثيرا ما ارتبطت الهجرة بنقاط تحول (مهنية) انعكست على سيرتهم الذاتية وبقرارات مصيرية، كاختيار شريك الحياة وتكوين أسرة، أو بامتهان وظيفة أو اختيار مكان دراسي أو تدريبي أو مكان عمل؛ ولذا فإن الجزء الأكبر من المهاجرين كان من صغار البالغين والشباب. وإن استغلال الفرص المتمثِّلة في الهجرة توقَّف على بعض السمات والصفات الاجتماعية والمؤهلات الخاصة بالأفراد أو أعضاء الكيانات المجتمعية (العائلات والأسر والمجموعات والشعوب)؛ وعلى رأسها الجنس والعمر ودورة حياة الأسرة والعادات والمؤهلات والكفاءات وكذا الوضع الاجتماعي (المستوى والطبقة) والمهني، فضلا عن الانتماءات «العرقية» و «الطائفية» و «العنصرية» و «القومية» والتي ارتبطت في كثير من الأحيان بامتيازات وحقوق (مكتسبة بالولادة).

وإزاء تفاوت حجم المعطيات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والحقوقية والرمزية، تفاوتت أيضا درجة استقلالية المهاجرين إلى حد بعيد، سواء كأفراد أو كأعضاء في شبكات أو كيانات مجتمعية. وترتبت مشروعات الهجرة في أغلب الأحيان على مفاوضات تمت في إطار العائلات والأسر والكيانات الاقتصادية الأسرية أو في إطار الشبكات، واصطبغت تلك المفاوضات إما بالصراع أو بالتعاون. وغالبا ما افتقر المقدمون على الهجرة إلى سلطة التصرف، لأن الهجرات القائمة على اكتساب واستغلال الفرص لم تقتصر بأي حال من الأحوال على تحقيق الاستقرار أو تحسين معيشة المهاجرين أنفسهم فحسب، بل إن الكثير من الأسر، وغيرها من الكيانات المجتمعية الأصلية، اعتادت على إرسال ذويها للهجرة من أجل تحسين أو دعم الوضع الاقتصادي والاجتماعي للكيان المجتمعي المتخلف من خلال «الحوالات المالية» وغيرها من وسائل تحويل الأموال. والشرط الأساسي لنجاح مثل هذه الاستراتيجيات الاقتصادية القائمة على الانتقال من مكان إلى مكان تمثَّل في الحفاظ على الروابط الاجتماعية عبر مسافات وفترات طويلة.

إلا أن استغلال الهجرة باعتبارها فرصة للفرد أو للجماعة توقَّف بشكل أساسي على الإلمام بأهدافها ومساراتها وإمكانياتها الكامنة، سواء فيما يتعلق بالهجرة المؤقتة أو الدائرية أو تلك التي تستند إلى إقامة طويلة الأجل في مكان آخر. وإن توافر معلومات موثوقة ومتواصلة عن المنطقة المستهدفة كان سببا أساسيا وراء بلوغ الهجرات المهنية والدراسية والاستيطانية مدة محددة ومدى محدد. وتمثَّلت أهم المصادر المعرفية التي تم الاعتماد عليها في هذا الصدد في المعلومات الشفهية أو الكتابية التي حرص المهاجرون (الرواد) على تناقلها والتي تطرقت إلى موضوعات مختلفة، ما بين فرص العمل والدراسة والزواج والاستيطان، فقد اكتسبت رسائلهم قيمة معرفية كبيرة بناء على صلاتهم بالأقارب والمعارف. ووضعوا بذلك حجر الأساس لسلسلة من الهجرات، اقتفى في إطارها المهاجرون والمهاجرات مسارات سلكها أقاربهم ومعارفهم ممن هاجروا في وقت سابق.

وفي معظم الأحيان ارتبطت المناطق المصدرة والمستقبلة للمهاجرين من خلال شبكات قائمة على الصلات بين الأقارب والمعارف. وتمثلت الدعائم الرئيسية التي استندت إليها تلك الشبكات في عنصري الولاء والثقة. ولا يسعنا المبالغة في تقدير أهمية النقل المعرفي الذي انطوت عليه تلك الشبكات: فنلاحظ على سبيل المثال أنه تم إرسال ما لا يقل عن ١٠٠ مليون „رسالة شخصية من مهاجرين" من الولايات المتحدة الأمريكية إلى ألمانيا بين عامي ١٨٢٠ و ١٩١٤ وتم تداولها بين الأقارب والمعارف في بلدان المنشأ.

وقد تسنى للمهاجرين المحتملين في معظم الأحيان الحصول على معلومات مضمونة، وكافية لاتخاذ أو تنفيذ قرار الهجرة ولكن عن وجهة واحدة فقط أو عن سبل استقرار فردية ومحدودة محليا أو عن مجالات مهنية محددة، مما لم يترك لهم مجالا فعليا للاختيار بين الأهداف والوجهات المختلفة. وعلى الرغم من أن هذا الأمر عمل على تقييد سلطة تصرف الفرد في إطار قرارات الهجرة، إلا أن الوجهات المستهدفة تضمنت طيفا واسعا من العلاقات والصلات بين الأقارب والمعارف مما أدى إلى تحجيم المخاطر وتوفير الفرص: وهو ما يبرر أن ٩٤ في المئة من مجموع الأوروبيين الذين انتقلوا إلى أمريكا الشمالية قرابة عام ١٩٠٠، انصب اهتمامهم في البداية على البحث عن أقاربهم ومعارفهم، وهو ما حد بدوره من فرص تعرضهم للأذى وعزز من سلطة تصرفهم في تلك المنطقة.

قدَّمت شبكات المهاجرين معلومات عابرة للحدود حول الفرص والمخاطر الكامنة في الهجرة والهجرة المرتدة وحول طرق الانتقال الآمنة وكذا حول العبء النفسي والجسدي والمالي المرتبط بالسفر. كما وفرت تلك الشبكات سبلا لحماية وتوجيه الأفراد في الغربة، فضلا عن إتاحة فرص للعمل والإقامة ومساعدة المهاجرين على التواصل مع السلطات وكذا المؤسسات المركزية والمحلية. وكلما اتسع نطاق الشبكات وازداد الاهتمام بما تستند إليه من علاقات اجتماعية، كلما وفَّرت المزيد من الفرص الاقتصادية والاجتماعية ـ فكانت جاذبية وجهات الهجرة تُقاس بحجم شبكات الأقارب والمعارف التي وفرت ملاذا للمهاجرين، وكذا بمدى كثافة العلاقات الاجتماعية التي حظيت بالرعاية في إطار تلك الشبكات. ونجد بالتالي أن شبكات المهاجرين لم ترفع من احتمالية وفود المزيد من المهاجرين فحسب، بل استحدثت بالأحرى تقليدا للهجرة أثَّر بدوره على دوام حركات الهجرة واستمراريتها، فأصبحت تمتد عبر فترات طويلة من الزمن وفي بعض الأحيان عبر أجيال.

لا شك أن الفضل في الحفاظ على شبكات المهاجرين ورعايتها يعود إلى التواصل وتبادل الخدمات؛ ولكن ليس هذا فقط، إذ أن نمو تلك الشبكات يُعزى في المقام الأول إلى الزواج (عبر الحدود المحلية والقارية في كثير من الأحيان) وتأسيس الجمعيات والاتحادات واتباع ثقافة معينة في التنشئة الاجتماعية وكذا إلى الأنشطة الاقتصادية المشتركة.وعلى الرغم من أن تلك الشبكات وفرت الحماية والفرص للمهاجرين، إلا أنها ألقت في الوقت نفسه ضغوطا والتزامات اجتماعية على عاتق الفرد. إذ أن صيانة تلك الشبكات، التي كان من شأنها أن تحظى بأهمية محورية في سياق الهجرة، تطلب ولاء وقبولا للمسؤولية الجماعية وما ارتبط به من خدمات تبادلية. فتحتَّم على المهاجرين والمهاجرات تقاسم معايير محددة وكذا مبادئ وأهداف إجرائية مع بعضهم البعض، وخضع أعضاء الشبكات لرقابة اجتماعية وثيقة امتدت عبر مسافات طويلة من آلاف الكيلومترات، وهو ما يُعزى إلى وثاقة العلاقات بين الأقارب والمعارف. باتت الثقة أمرا مفروضا، وتدرجت أشكال العقوبات عبر طيف واسع: ما بين ضياع السمعة إزاء انعدام الثقة والانسحاب من الخدمات والعزلة الاجتماعية والتهميش. وقد ساهمت تلك العقوبات في تعزيز الهشاشة الاجتماعية والمخاطر في سياق الهجرة وأضعفت بالتالي من إمكانية اغتنام الفرص التي توفرها الحركات المكانية.

أما في سياق الانتداب، وهو شكل خاص من أشكال الهجرة، فتقوم المنظمات أو المؤسسات (أفرع لمحلات تجارية أو شركات متعددة الجنسيات أو خدمات دبلوماسية أو القوات المسلحة) بدور شبكات الأقارب والمعارف. اقتصر الانتداب في معظم الأحيان على فترات إقامة محدودة في مكان آخر بهدف العمل في أفرع لشركات أو شركات تابعة أو لدى أطراف ثالثة. وكان الانتداب بمثابة تعبير عن استراتيجيات الشركات على المدى الطويل؛ تلك الاستراتيجيات التي حرصت على تواجد المتخصصين باستمرار في مختلف مواقع الشركات وعززت الإقامة في تلك الأماكن من خلال بنيات تحتية محددة، كالمدارس والنوادي والجمعيات والاتحادات.

بينما تمتَّع الفرد في هذا السياق بسلطة تصرف كبيرة في إطار تنفيذ مشروع الهجرة، اختلف الأمر اختلافا كبيرا في حالات أخرى، كتلك التي جاءت فيها الهجرة كرد فعل على بعض الأزمات. ففي تلك الحالات ترتبت الهجرة على التدهور البيئي أو الأزمات الاقتصادية أو الاجتماعية الطارئة. وفي حالات أخرى ارتبطت الهجرة بما فرضته الجهات المؤسسية (الحكومية) الفاعلة من تدابير تنظيمية وإدارية نجحت بدورها في تقييد سلطة تصرف وكذا حرية وحركية الأفراد والجماعات، بحيث لم تترك مجالا لأية بدائل واقعية. ففر الناس من العنف الذي هدد حياتهم وحريتهم بشكل مباشر وعلى نحو غير متوقع، والذي استند في معظم الأحيان إلى أسباب سياسية أو عرقية أو عنصرية أو دينية. وقد تشير الهجرة الإجبارية إلى التشريد القسري أو الترحيل أو إعادة التوطين، وامتدت في الكثير من الأحيان لتشمل فئات سكانية بأكملها.

التوسع الأوروبي فيما بين القرنين الـ ١٦ و ١٩

مع الغزو الأسباني والبرتغالي للأمريكتين إبَّان الفترة الانتقالية من القرن الـ ١٥ إلى القرن الـ ١٦ لم تتحد هجرات الأوروبيين في بادئ الأمر إلا في إطار محدود للغاية. لم ينظر الحكام الأسبان والبرتغاليين إلى أراضيهم الجديدة باعتبارها مستوطنات بل مستعمرات تخدم أغراض الاستغلال الاقتصادي. وحتى يتسنى لهم استغلال تلك المستعمرات اقتصاديا، كان من الضروري „تقدير قيمة" ممتلكاتهم فيما وراء البحار عبر استكشاف وتعدين الثروات المعدنية أو إنتاج السلع الزراعية، وهو ما تطلَّب وجود أعداد كبيرة من القوى العاملة. إلا أن القوى العاملة لم تكن متوفرة إزاء انخفاض أعداد السكان المحليين إلى حد كبير، وذلك جراء ارتفاع معدلات الوفيات في إطار المعارك بين السكان المحليين والغزاة، ولكن ليس هذا فقط، بل هناك سبب آخر أكثر تأثيرا: فقد ظلت قارات أفريقيا وآسيا وأوروبا على اتصال ببعضها البعض عبر آلاف السنين، حتى من الناحية الوبائية، وذلك عبر الهجرات والتعاملات التجارية والأسفار، على عكس أستراليا والأمريكتين. فما أن وطأت أقدام الأوروبيين هذا العالم الجديد حتى تسببت موجات من الأوبئة في هلاك السكان المحليين. فالكثير من الفيروسات والبكتيريا التي حملها الغزاة معهم إلى هذه الأراضي، والتي كانت لديهم مناعة ضدها، كان لها تأثير مدمر على السكان الأصليين. يُقال أن أعداد السكان في المستعمرات الأسبانية، الكائنة في أمريكا الجنوبية والوسطى قبل اكتشافات كولومبوس، قد انخفضت من قرابة الـ ٤٠ مليون نسمة إلى نحو تسعة ملايين نسمة حتى عام ١٥٧٠، ثم انخفضت مجددا إلى ما لا يزيد عن أربعة ملايين نسمة بحلول عام ١٦٢٠.

وإن هذه العلاقة التي سبق وأشرنا إليها بإيجاز شكَّلت إطارا رئيسيا لحركات الهجرة العالمية في الفترة بين أواخر القرن الـ ١٥ وأوائل القرن الـ ١٩: حيث كشفت بعض الحسابات التقريبية عن نزوح نحو عشرة ملايين شخص إلى الأمريكتين في الفترة ما بين بلوغ كولومبوس منطقة الكاريبي عام ١٤٩٢ وعام ١٨٢٠؛ أي على مدى أكثر من ثلاثة قرون. وفد من بينهم نحو اثني مليون مهاجر من أوروبا وثمانية ملايين من أفريقيا كعبيد. أولئك الذين نزحوا من أوروبا كانوا من فئات الجنود والموظفين، وهي فئات ضرورية لفرض الاستعمار وإرساء قواعده، فضلا عن مجموعة كبيرة من المبشِّرين، إضافة إلى التجار وملاك المزارع ومديريها، والحرفيين المدنيين والفلاحين وكذا العمال، الذين شكَّلوا نحو ثلث النازحين الأوروبيين تقريبا ولم يأتوا إلى القارة المزدوجة كأحرار. أبقى الأوروبيون بحلول عام ١٨٠٠ على ما يصل إلى ٥٠٠ أو ٦٠٠ قاعدة تجارية وإدارية وعسكرية خارج نطاق الأمريكتين؛ في أفريقيا وأوقيانوسيا وآسيا (عدا سيبيريا)، من بينها أربعة مستوطنات قائمة على الدوام تضم ما يزيد عن ٢٠٠٠ مواطن أوروبي: المستوطنة البرتغالية المتمثِّلة في ولاية جوا على الساحل الغربي للهند والأسبانية المتمثِّلة في مدينة مانيلا على جزيرة الفلبين الرئيسية لوزون، وكذا المستوطنات الهولندية المتمثِّلة في باتافيا (جاكرتا حاليا) على جزيرة جاوة الإندونيسية وفي مدينة كيب تاون بجنوب أفريقيا.

عولمة متسارعة في أواخر القرن الـ ١٩ ومطلع القرن الـ ٢٠

منذ أوائل القرن الـ ١٩ نمت أعداد النازحين من أوروبا نموا مطردا. وبلغت هجرات الأوروبيين ذروتها في المرحلة التي شهدت توسعا استعماريا مطردا في جميع أنحاء العالم وكذا عولمة اقتصادية، وقد سبقت تلك المرحلة الحرب العالمية الأولى بنحو ٣٠ أو ٤٠ عاما تقريبا. وبينما سلك الجزء الأصغر من النازحين الأوروبيين العابرين للقارات الطرق البرية واستقرت بشكل رئيسي في المناطق الأسيوية من الإمبراطورية الروسية، نجح الجزء الأكبر من النازحين في عبور الحدود البحرية للقارة. فأكثر من ثلثي الأوروبيين الذين هاجروا عبر البحار، والذين تراوحت أعدادهم بين ٥٥ إلى ٦٠ مليون مهاجر، اتجهوا إلى أمريكا الشمالية، مع العلم أن الولايات المتحدة استقبلت أكثر من ستة أضعاف الأعداد المهاجرة إلى كندا. واتجه خُمْس المهاجرين تقريبا إلى أمريكا الجنوبية، ونحو سبعة بالمائة إلى أستراليا ونيوزيلندا. جدير بالذكر أن تلك المناطق المتمثِّلة في أمريكا الشمالية وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب أمريكا الجنوبية وكذا سيبيريا شكَّلت ما يُعرَف باسم «الأوروبات الحديثة»، بوصفها مناطق استيطان أوروبية.

إلا أن عملية الاستيطان في الأوروبات الحديثة حملت في طياتها النزعة إلى تهجير السكان الأصليين إلى مناطق الأطراف، ولم تخل في كثير من الأحيان من الميل إلى الإبادة الجماعية. وهو ما أدى إلى تهميش النظم والهياكل الأصلية المتوارثة على نطاق واسع أو القضاء عليها تماما، وانطبق هذا على النظم الاقتصادية والاجتماعية وهياكل السلطة والأنماط الثقافية. إلا أن الحافز الأكبر وراء نزوح الأوروبيين على نطاق واسع يُعزى بلا شك، وفي جميع الحالات، إلى الرغبة في سرعة إدماج المستوطنات في السوق العالمية خلال القرن الـ ١٩. وهناك عوامل أدت إلى ارتفاع الطلب على القوى العاملة في مناطق متفرقة من العالم وبالتالي إتاحة وجهات هجرة جديدة أمام الأوروبيين، وتلك تتلخص في احتياج الأوروبيين إلى المواد الخام والمواد الغذائية، فضلا عن موجة الاستثمارات التي ترتبت على تدفق رؤوس الأموال من أوروبا. وأدت هجرة الأوروبيين بدورها إلى إنشاء أسواق كبرى للسلع الأوروبية المصنَّعة في تلك المناطق، وهو ما عزز على نحو متزايد من الاعتماد الاقتصادي المتبادل. وتُعزى إحدى الأسباب الرئيسية لنمو هجرة الأوروبيين عبر البحار إلى ارتباط أوروبا والمناطق الواقعة فيما وراء البحار عن طريق الهجرة منذ عقود بل وقرون طويلة. فمن ناحية قدَّم المهاجرون الرواد معلومات حول إمكانيات ومسارات ومخاطر الهجرة إلى ما وراء البحار. ومن ناحية أخرى أدى التطور الكبير الذي شهدته وسائل النقل في أوروبا في إطار التحول الصناعي إلى تيسير الهجرة بعيدة المدى إلى ما وراء البحار وإلى المناطق المستهدفة، مما أسفر عن ازدياد الكثافة السكانية في تلك المناطق. كما أدى أيضا إلى تقليص مدة الرحلة وإلى انخفاض تكاليفها إلى حد بعيد.

نما حجم الهجرة الأوروبية إلى الولايات المتحدة الأمريكية نموا هائلا منذ عشرينيات القرن التاسع عشر، إذ اتجه إلى الولايات المتحدة الأمريكية في هذه الفترة نحو ١٥٢,٠٠٠ مواطن أوروبي، ليرتفع هذا العدد في فترة الثلاثينيات ليصل إلى ٦٠٠,٠٠٠ مهاجر تقريبا. وتمثلت ذروة هجرة الأوروبيين إلى الولايات المتحدة الأمريكية في الفترة بين أربعينيات وثمانينيات القرن التاسع عشر، حيث وصل مجموع المهاجرين إلى نحو ١٥ مليون مهاجر أوروبي، جاء معظمهم من غرب وشمال ووسط القارة؛ من بينهم أكثر من أربعة ملايين مواطن ألماني وثلاثة ملايين مواطن أيرلندي وثلاثة ملايين مواطن إنجليزي واسكتلندي وويلزي وكذا مليون مواطن اسكندينافي، ليرتفع عدد السكان في الولايات المتحدة الأمريكية خلال تلك الفترة، التي امتدت على مدى نصف قرن، من ١٧ مليون نسمة إلى ٦٣ مليون نسمة تقريبا.

على الرغم من ارتفاع نسبة الهجرة إلى أمريكا الشمالية على نحو متزايد وكذا نمو أعداد سكانها، إلا أنه لم يكن هناك عجز في فرص العمل إزاء نمو السكان، بل بالعكس؛ واصل الطلب على القوى العاملة ارتفاعه. والسبب في ذلك يعود إلى الازدهار الزراعي والاقتصادي الصناعي. ارتبط النمو الاقتصادي بعلاقة تبادلية وثيقة مع التوسع الإقليمي الدائم خارج نطاق الولايات الـ ١٣ المؤسسة للولايات المتحدة الأمريكية. وفي غضون عقود قليلة اتسع المجال الإقليمي للولايات المتحدة الأمريكية ليشمل نحو خمسة أضعاف مساحتها السابقة. في عام ١٨٢٠ كانت الغالبية العظمى من سكان الولايات المتحدة الأمريكية، نحو ثلاث أرباع مجموع السكان، تعيش في الولايات الواقعة على الساحل الشرقي، بينما استقر ما لا يزيد عن ربع السكان غرب جبال الأبالاش. أما بحلول عام ١٨٦٠، أدت الهجرات العابرة للقارات والهجرات الإقليمية في إطار الولايات المتحدة الأمريكية إلى استقرار نحو نصف سكان الولايات المتحدة غرب جبال الأبالاش. يمكننا تلخيص مسألة نزوح ملايين السكان ذوي الأصول الأوروبية غربا إلى المناطق المعمَّرة حديثا في أمريكا الشمالية في إطار مفهوم «الاستعمار الاستيطاني». وخلال العقدين الأخيرين من القرن الـ ١٩ بلغ هذا النزوح نهايته، إلا أنه أفضى إلى مرحلة انتهجت فيها الولايات المتحدة الأمريكية سياسة قائمة على التوسع الاستعماري فيما وراء البحار.

بلغ التوسع الاستعماري للولايات المتحدة الأمريكية واليابان ولاسيما الدول الأوروبية أوجه خلال العقود الثلاثة أو الأربعة السابقة للحرب العالمية الأولى وذلك في إطار مرحلة الإمبريالية العظمى. إن ميل الإمبراطوريات الأوروبية العظمى خلال العقود السابقة إلى السيطرة السياسية والاقتصادية والعسكرية غير الرسمية على المناطق الأسيوية والمحيط الهادي والأفريقية والأمريكية اللاتينية أدى إلى تفاقم المنافسة الاستعمارية حول تعزيز الاستعمار الرسمي على نحو متزايد. وإن تلك المرحلة التي شهدت توسعا استعماريا متزايدا عكست في الوقت نفسه تواصلا اقتصاديا دوليا حثيثا تسبب بدوره في حدوث تحولات اقتصادية بعيدة المدى. سبق وأشرنا إلى ثورة النقل والاتصالات التي شهدها القرن الـ ١٩، والتي تمثَّلت أبرز نتائجها في انخفاض تكاليف النقل إلى حد كبير خلال الفترة الانتقالية بين القرنين الـ ١٩ والـ ٢٠. مما أدى إلى اجتياز المزيد والمزيد من البشر وكذا السلع مسافات أطول. جرى تطوير وتوسيع وسائل الاتصال على نحو مطرد (الحركة البريدية المنتظمة والتلغراف وكذا التليفون منذ عام ١٨٧٨)، وتطوَّرت الصحف لتصبح مصادر إخبارية قليلة التكلفة وفي متناول الجميع، وذلك بسبب سرعة ازدياد أعدادها وطبعاتها. وبذلك تحسَّنت إمكانات الاستعلام عن سبل الاستيطان وفرص العمل في المناطق الأخرى. وإن ما شهدته وسائل النقل والاتصالات من تنمية عاجلة ساعد على إنشاء الأسواق في قطاع الهجرة. حيث اتجهت شركات السفن العالمية في أوروبا وأمريكا الشمالية، المتنافسة فيما بينها، إلى استكشاف المزيد من وجهات الهجرة الجديدة، واستعانت في هذا الإطار بأحدث أساليب الدعاية وبنظام متطور من الوكلاء ليتسنى لها تعبئة بواخرها بالمهاجرين.

وفي القرن التاسع عشر بلغت هجرات الأوروبيين العالمية لوجهات بعيدة المدى ذروتها في تلك المرحلة التي شهدت توسعا استعماريا مطردا في جميع أنحاء العالم وكذا عولمة اقتصادية، وقد سبقت تلك الفترة الحرب العالمية الأولى بنحو ٣٠ أو ٤٠ عاما. ومع بداية القرن الـ ١٩ بلغ متوسط عدد النازحين الأوروبيين عبر البحار نحو ٥٠,٠٠٠ نسمة سنويا. ثم حدث تحول إبان أربعينيات القرن الـ ١٩: فما بين عامي ١٨٤٦ و ١٨٥٠ هاجر سنويا أكثر من ٢٥٠,٠٠٠ شخص في المتوسط عبر المحيط الأطلنطي، اتجه منهم نحو ٨٠ بالمائة إلى الولايات المتحدة الأمريكية و ١٦ بالمائة إلى كندا. وارتفع هذا العدد بين عامي ١٨٥١ و ١٨٥٥ ليصل إلى ٣٤٠,٠٠٠ أي بما يعادل سبعة أضعاف المعدل السنوي إبان العقود الأولى للقرن الـ ١٩. وواصلت الولايات المتحدة هيمنتها كأبرز مقاصد الهجرة عبر استقبال ٧٧ بالمائة من المهاجرين في مقابل تسعة بالمائة اتجهوا إلى كندا وأربعة بالمائة إلى البرازيل. لا شك أن هجرة الأوروبيين إلى الولايات المتحدة الأمريكية تراجعت بشكل ملحوظ بسبب الأزمة الاقتصادية العالمية في أواخر خمسينيات القرن التاسع عشر والحرب الأهلية الأمريكية التي اندلعت بين عامي ١٨٦١ و ١٨٦٥، إلا أنها ما لبثت أن تزايدت مرة أخرى مع نهاية الحرب الأهلية لتفوق معدلاتها في أوائل خمسينيات القرن التاسع عشر، وعادت لتنخفض من جديد جراء الأزمة الاقتصادية العالمية التي وقعت إبان سبعينيات القرن التاسع عشر. وتوالت ذرى الهجرات الأوروبية عبر البحار منذ بداية ثمانينيات القرن التاسع عشر. ففي النصف الثاني من ثمانينيات القرن التاسع عشر بلغ متوسط عدد المهاجرين الأوروبيين عبر البحار نحو ٨٠٠,٠٠٠ مهاجر سنويا، اتجه معظمهم، كما في السابق، إلى الولايات المتحدة

الأمريكية. وبلغت المعدلات ذروتها خلال الخمسة عشرة عاما السابقة للحرب العالمية الأولى، إذ وصل متوسط عدد الأوروبيين المهاجرين، الذين أداروا ظهورهم للعالم القديم، إلى أكثر من ١,٣ مليون مهاجر.

جدير بالذكر أن مسارات هجرة الأوروبيين عبر المحيط الأطلسي لم تكن أحادية الاتجاه قط، وهي حقيقة يتم إغفالها في كثير من الأحيان: فكلما تراجعت أهمية الهجرات العائلية، التي ظلت مهيمنة لفترة طويلة، في القرن التاسع عشر جراء الاستيطان الزراعي، اكتسبت الهجرة الفردية للأيدي العاملة أهمية أكبر في سياق العمالة الصناعية، وتزايدت الهجرات المرتدة. نلاحظ أنه فيما بين عامي ١٨٨٠ و ١٩٣٠ عاد من الولايات المتحدة الأمريكية أربعة ملايين شخص إلى أوروبا، مع وجود فوارق كبيرة بين الفئات المختلفة، حيث عاد إلى أوروبا خمسة بالمائة فقط من اليهود الذين هاجروا عبر المحيط الأطلسي و ٨٩ في المئة من البلغاريين والصرب، بينما وصلت نسبة العائدين من المهاجرين الأوروبيين من وسط وشمال وغرب أوروبا إلى ٢٢ في المئة في المتوسط. ويلاحظ أيضا أن هجرات الأوروبيين الدائمة عبر البحار، من شرق وجنوب أوروبا والجزء الشرقي من وسطها، والتي كانت سائدة حول منعطف القرن الـ ٢٠، تراجعت في مقابل الهجرات المرتدة والدائرية. إذ تبيَّن على سبيل المثال أن نصف الإيطاليين، الذين هاجروا إلى أمريكا الشمالية والجنوبية بين عامي ١٩٠٥ و ١٩١٥، عادوا إلى إيطاليا مرة أخرى.

اكتسبت مناطق أخرى من الأوروبات الحديثة أهمية متزايدة على حساب أمريكا الشمالية، على رأسها أستراليا والبرازيل والأرجنتين وكذا نيوزيلندا وأوروجواي وتشيلي. فبينما استقبلت الولايات المتحدة الأمريكية نحو أربعة أخماس مجموع المهاجرين الأوروبيين قبل عام ١٨٥٠، ونحو ثلاث أرباعهم في النصف الثاني من القرن الـ ١٩، لم يتوجَّه إليها أكثر من نصف المهاجرون منذ نهاية القرن. وتعود الأهمية المتزايدة التي اكتسبتها المناطق الأخرى كوجهات هجرة على حساب أمريكا الشمالية إلى افتتاح مستوطنات كبرى حديثة للمزارعين الأوروبيين وزيادة الطلب على الأيدي العاملة للتنقيب عن المواد الخام التي تم اكتشافها.

وإلى جانب استيطان الأوروبيين في المناطق الاستعمارية، انطلقت هجرات أخرى متنوعة وواسعة النطاق لأفارقة وأسيويين على وجه الخصوص، كنتيجة مباشرة وغير مباشرة للتوسع الأوروبي السياسي والإقليمي على الصعيد العالمي وكنتيجة أيضا للعولمة الاقتصادية المنبثقة من أوروبا. ومن بين تلك الهجرات ما كان فرارا أو تشريدا أو إعادة التوطين نتيجة لفرض الاستعمار وإرساء قواعده. ومن بينها ما اتخذ شكل التهجير كنتيجة للضغط الذي يمارس في العديد من المناطق المستعمرة لزراعة منتجات قابلة للتسويق أو لإنشاء اقتصاديات زراعية واسعة النطاق، والتي اعتمدت على أعداد كبيرة من العمالة (القسرية) على المدى البعيد. أما هجرات العمل، فنتجت عن التغيرات التي طرأت على الهياكل الاقتصادية، وعلى رأسها الاستكشاف والاستغلال العاجل لموارد المواد الخام اللازمة للتصنيع الأوروبي وتحويل الاقتصاد الزراعي إلى زراعة المحاصيل النقدية، وكذا نتيجة لنمو المناطق الاقتصادية الحضرية أو عن تطوير البنية التحتية (إنشاء السكك الحديدية والقنوات والموانئ). أو أنها كانت هجرات قائمة على الاستيطان الزراعي، وتلك ترتبت على استكشاف المستوطنات الجديدة واحتلالها، الأمر الذي لم يخل في معظم الأحيان من العنف.

أوروبا كوجهة للهجرة منذ أواخر القرن الـ ١٩

في الثلث الثاني من القرن الـ ٢٠ انقضت ظاهرة هجرات الأوروبيين الجماعية عبر المحيط الأطلسي، تلك الظاهرة التي شكَّلت أحداث الهجرة العالمية على «طول» امتداد القرن الـ ١٩. ففي عشرينيات القرن العشرين لم يتعد حجم هجرة الأوروبيين عبر البحار نصف معدلاته السنوية خلال العقد السابق للحرب العالمية. وفي الثلاثينيات انخفضت النسبة إلى أبعد من ذلك جراء الأزمة الاقتصادية، فما بين عامي ١٩٣١ و ١٩٤٠ لم يتم تسجيل أكثر من ١,٢ مليون مهاجر عبر البحار من جميع أنحاء أوروبا. ليصل متوسط عدد المهاجرين إلى ١٢٠,٠٠٠ مهاجر سنويا، أي إلى أدنى معدلاته على مدى المائة عام السابقة. وجاءت الحرب العالمية الثانية لتضع حدا نهائيا للهجرة عبر المحيط الأطلسي.

على الرغم من ارتفاع نسبة هجرة الأوروبيين عبر الأطلسي مرة أخرى وذلك إبان خمسينيات القرن العشرين، إلا أنها لم تصل أبدا إلى معدلاتها إبان العشرينيات أو حتى إلى فترة ذروتها في أواخر القرن الـ ١٩ وأوائل القرن الـ ٢٠. بل على العكس، نلاحظ أن بريطانيا العظمى وهولندا و(غرب) ألمانيا، تلك المناطق التي ظلت لفترة طويلة من أبرز الدول الأوروبية المصدرة للمهاجرين، قد سجَّلت في أغلب الأحيان ارتفاعا في أعداد المهاجرين الوافدين في مقابل المهاجرين النازحين. أما تيارات الهجرة القادمة من غيرها من الدول الأوروبية، والتي احتلت أيضا مكانة كبيرة بوصفها دولا مصدرة للمهاجرين عبر الأطلسي، كإيطاليا وأسبانيا والبرتغال واليونان، فقد اتجهت في الأساس إلى أسواق العمل المتنامية في الدول الصناعية بشمال وغرب ووسط أوروبا.

ظلت أوروبا لفترة طويلة وجهة منسية بين غيرها من القارات، على الرغم من كونها الجهة الفاعلة الرئيسية في مجال التوسع الاستعماري والمُصَدِّر الرئيسي للمهاجرين إلى أمريكا وأفريقيا وآسيا والمنطقة الواقعة جنوب المحيط الهادي. وفي بريطانيا العظمى، مركز أعظم إمبراطوريات العالم، ارتفعت أعداد الأفارقة والأسيويين في أعقاب التوسع الاستعماري ما بين القرنين الـ ١٧ والـ ١٩، إلا أنها ظلت محدودة نسبيا. إذ نمت أعداد النازحين من المنطقة الواقعة جنوب الصحراء الكبرى والمقيمين في بريطانيا العظمى لتصل في عام ١٧٧٠ إلى نحو ١٠,٠٠٠ شخص، نصفهم

يقيم في لندن وحدها. بينما استقرت أعدادا أقل من النازحين الأجانب في المناطق الأوروبية الأخرى. وهذا ما تغير تدريجيا في غضون العقدين السابقين للحرب العالمية الأولى، حيث نما حجم السكان الأوروبيين ذوي الأصول الأجنبية نموا ملحوظا. وعلى عكس المعتقد في الكثير من الأحيان، لم تقتصر تلك الفئات المهاجرة بأي حال من الأحوال على المنتمين للطبقات السفلى في المناطق المستعمرة.

اعتمد المهاجرون الرواد على اكتساب المهارات الأكاديمية في سياق التوجهات الاستعمارية كأحد السبل الرئيسية للهجرة إلى أوروبا (قنوات الهجرة). واستند نجاح السيطرة الاستعمارية من الناحية الوظيفية بالكامل إلى وجود جهاز شامل من الموظفين الإداريين المحليين. تنامى هذا الحشد الهائل من المعاونين على نحو مطرد جنبا إلى جنب مع ازدياد كثافة السيطرة الاستعمارية منذ أواخر القرن الـ ١٩. وفي فترة ما بين الحربين وصل المزيد والمزيد من الموظفين الإداريين من أهل البلاد إلى قمة الإدارات الاستعمارية، مع العلم أن فئة ليست بقليلة منهم تلقت تعليمها في العواصم الأوروبية. وليس كل من هاجر من المناطق المستعمرة إلى أوروبا بدافع التأهيل والتعليم عاد إلى موطنه الأصلي مرة أخرى، بل ظل العديد منهم في أوروبا.

إن تصفية الاستعمار عقب الحرب العالمية الثانية لم يضع حدا لتيارات الهجرة القائمة على أسباب تعليمية وسياسية في المنطقة، فالعديد من القوى الاستعمارية السابقة كانت تنظر إلى حركات الهجرة القائمة على أسباب تعليمية والنازحة من الدول التي نالت في ذلك الوقت استقلالها رسميا، باعتبارها فرصة لربط الكوادر القيادية المستقبلية بالقوى الاستعمارية السابقة بهدف استغلالها في اكتساب نفوذ وسيطرة على قطاعات السياسة والاقتصاد والمجتمع والثقافة في الدول المستقلّة حديثا. تجدر الإشارة إلى أن الاتجاه إلى تأهيل الفئات المعاونة للحكم الاستعماري لم يفتح بابا أمام الهجرة إلى أوروبا فحسب بل تسبب بالأحرى في تطور أنماط محددة للهجرات التعليمية العالمية، لازال بعضها قائما حتى الآن وتنتهي في كثير من الأحيان بالإقامة الدائمة في أوروبا. فقد تبيَّن أن فرنسا ضمت في العام الأكاديمي ١٩٤٩/١٩٥٠ نحو ٢٠٠٠ طالب من المستعمرات الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى، وتضاعف هذا العدد في غضون ثلاث سنوات ليرتفع مرة أخرى إبان نهاية الخمسينيات ويبلغ نحو ٨٠٠٠ طالب، أي الضعف مجددا. بينما يُفتَرض أن حوالي عُشر مجموع طلبة وطالبات المدارس الثانوية الكائنة في تلك المناطق، قد تابع مساره التعليمي في فرنسا خلال فترة الخمسينيات. وفي إطار استمرار هذا التقليد ضمت الجامعات الفرنسية نحو ٣٠,٠٠٠ طالب من المناطق الأفريقية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى خلال العام الأكاديمي ٢٠٠٠/٢٠٠١، وهو ما يعادل نحو خُمْس مجموع الطلاب الأجانب المُدرَجين في تلك الجامعات آنذاك.

وتعتبر الملاحة واحدة من أقدم بوابات الهجرة الوافدة إلى أوروبا من خارج القارة. إذ أن ما شهدته الأساطيل التجارية الأوروبية من تطوُّر مطرد في إطار العولمة دفعها منذ نهاية القرن الـ ١٩ إلى استئجار المزيد والمزيد من الرجال الأسيويين والأفارقة لتولي المهام المجهدة بدنيا والمرهقة صحيا داخل عنابر السفن. وصل هؤلاء العمال إلى الموانئ الأوروبية، حيث تشكَّلت بؤر استيطانية صغيرة من الأفارقة والأسيويين. فنجد على سبيل المثال أن البحارة القادمين من غرب أفريقيا والتابعين لقبائل الكرو أصبحوا جزءا من سكان ليفربول ولندن وكارديف منذ أواخر القرن الـ ١٩، وظلُّوا حتى سبعينيات القرن العشرين مرتبطين بصناعة الملاحة. بدأت الأساطيل التجارية في استئجار وقَّادين من الهند البريطانية منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر، ليصل عددهم بعد وقت قصير إلى بضع مئات يعملون في الموانئ البريطانية أو يتكسَّبون رزقهم بامتهان أعمال منخفضة الأجور في إطار صناعة الغزل والنسيج. وجاء البحارة الصينيون إلى لندن وهامبورغ وروتردام لمواصلة العمل في مجال النقل، أو اتجهوا إلى تأسيس أولى الحانات والمطاعم الصينية. علاوة على ذلك، جندت القوى الاستعمارية مجموعة ثالثة من الأسيويين والأفارقة والهنود الغربيين في ساحات المعارك الأوروبية إبان الحربين العالمية الأولى والثانية، من بينهم المهاجرين الأوائل إلى أوروبا، والذين استقر الآلاف منهم فيها بعد انتهاء القتال.

إلا أن الهجرة الجماعية الفعلية إلى القارة الأوروبية لم تبدأ إلا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، مدفوعة بتصفية الاستعمار في المقام الأول:.إذ أدى تصفية الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية بعد الحرب العالمية الثانية إلى حدوث „هجرة جماعية مرتدة" من المستعمرات الأوروبية إلى أوروبا مرة أخرى. وفي إطار تصفية الاستعمار تسنَّى للجهاز المعاون للحكم الاستعماري العودة إلى «موطنه الأصلي» السابق مرة أخرى، أولئك الموظفون الإداريون والجنود والضباط الذين ساندوا الحكم الاستعماري واعتبرهم السكان المحليون بمثابة رمزا للامساواة (السياسية) المتناهية في المجتمعات المستعمرة. إن انتهاء الإمبراطوريات الاستعمارية العالمية، لاسيما لهولندا (في أواخر أربعينيات القرن العشرين) وفرنسا (إبان خمسينيات وأوائل ستينيات القرن العشرين) والبرتغال (بداية سبعينيات القرن العشرين) حمل معه تيارات واسعة النطاق من اللجوء والتشريد. فقد استقبلت أوروبا فيما بين انتهاء الحرب العالمية الثانية وعام ١٩٨٠ نحو خمسة إلى سبعة مليون «أوروبي» من المستعمرات (السابقة) في سياق تصفية الاستعمار، من بينهم فئة كبيرة لم تولد في أوروبا ولم تعش فيها من قبل.

وبعد انتهاء الحكم الاستعماري في الهند الصينية وبداية حرب الاستقلال الجزائرية عام ١٩٥٤ استقبلت فرنسا، على سبيل المثال، ١,٨ مليون شخص في غضون عشر سنوات، ممن اجتثوا من جذورهم في سياق الصراعات الناجمة عن تصفية الاستعمار. إلا أن الهجرة الوافدة إلى البرتغال في سياق تصفية

الاستعمار كانت أوسع نطاقا، وذلك فيما يتعلق بعدد السكان في «الموطن الأصلي». ابتداء من خريف ١٩٧٣ استقبلت البرتغال في غضون عام واحد نحو نصف مليون من الـ «ريتورنادوس» (Retornados) أو العائدين من المستعمرات البرتغالية السابقة في أفريقيا (موزمبيق وأنجولا والرأس الأخضر وغينيا بيساو وساو تومي وبرينسيب). واحتلت أنجولا رأس قائمة بلدان المنشأ. وفي منتصف السبعينيات بلغت نسبة المهاجرين العائدين نحو ستة في المئة من سكان البرتغال. جدير بالذكر أن حركات الهجرة المكثفة التي انطلقت في سياق تصفية الاستعمار الأوروبي كشفت عن مفارقة في تاريخ التوسع الأوروبي، إذ أثبتت أن حضور الامبراطوريات الاستعمارية الأوروبية في العواصم الأوروبية كان أقوى عقب تصفية الاستعمار من ذي قبل.

كما استمرَّت أوروبا في استقبال تيارات واسعة من المهاجرين الوافدين من المناطق المستعمرة سابقا حتى بعد انتهاء الاستعمار، وهو ما يُعزى إلى وجود بوابات هجرة امتيازية قائمة على الصلات الوثيقة بين عواصم الاستعمار السابقة والدول التي مُنِحَت استقلالها والتي لا يزال بعضها قائما حتى الآن. وانطبق هذا على كبرى الدول الأوروبية المستقبلة للمهاجرين وعلى رأسها فرنسا وبريطانيا العظمى وكذا على هولندا وبلجيكا. فمنذ صدور قانون الجنسية البريطانية في عام ١٩٤٨ منحت بريطانيا العظمى جميع سكان المستعمرات والكومنولث جنسية موحدة ومكَّنتهم من دخول أراضيها بحرية وكذا العمل فيها. إلا أن هذا النظام المفتوح أُلغِيَ تدريجيا بداية من ستينيات القرن العشرين.

وفي أواخر القرن الـ ١٩ وأوائل القرن الـ ٢٠ ارتفعت أعداد المهاجرين المتجهين من المناطق الأوروبية الأخرى إلى كبرى الدول الاقتصادية الأوروبية في سياق الثورة الصناعية والتحديث الزراعي. وتكررت مجددا انتقالات العمالة عبر الحدود ولكن على نطاق أوسع من ذي قبل وفي إطار نظام محدد من الهجرة، وذلك في ظل فترة إعادة البناء الاقتصادي التي امتدت على مدى العقود الثلاثة الأولى التالية لانتهاء الحرب العالمية الثانية وما صحبها من ارتفاع في معدلات النمو الاقتصادي والتوسع السريع في أسواق العمل. وتوجه معظم المهاجرين الوافدين من البلدان المطلة على البحر المتوسط نحو غرب ووسط وشمال أوروبا.

الموارد المالية كشرط من شروط الهجرة

تستند العولمة إلى تكثيف التفاعلات الاجتماعية والتواصل الشبكي بين البشر والمجتمعات والاقتصاديات والأنظمة الثقافية. وقد نجحت على مدى نصف الألفية الماضية في تغيير العالم على نحو جذري. إن تلك المناطق التي تسمح باستضافة مثل تلك العمليات الحيوية القائمة على التواصل الشبكي العالمي تعتبر في كثير من الأحيان مراكز مستقبلة لأنماط محددة من الهجرة؛ وذلك لأن الهجرة تعد عنصرا مكوِّنا لعمليات توطيد العلاقات والتفاعلات الاجتماعية وكذا دليلا على وجودها، بل هي جزء أساسي لا يتجزأ من التواصل الشبكي بين الأفراد والجماعات. من جهة أخرى تساهم الهجرات في عمليات التحول الناتجة عن العولمة، فقد غيَّرت من التركيبات السكانية وعدلت من الهياكل الاقتصادية والاجتماعية والممارسات الدينية وأشكال التعبير الفني. إن دور الهجرة كعنصر أساسي من عناصر العولمة لم يقتصر على القرون الماضية فحسب، بل وامتد حتى الوقت الحاضر، وسيمتد على الأرجح في المستقبل أيضا. ولذا فإنه من غير المعقول أن نتصور أن معظم المهاجرين في القرون الماضية كانوا من الفقراء والمحتاجين في المقام الأول. طالما كانت الموارد المالية شرطا أساسيا لتنفيذ مشروعات الهجرة الفردية، وليس في الوقت الحاضر وحسب. إذ تعيَّن في الماضي أيضا تسديد الرسوم لدخول ومغادرة البلاد، إضافة إلى ضخامة نفقات السفر والانتقالات وعمولات الوكلاء والوسطاء (الباهظة) التي تم فرضها في معظم الأحيان. وقد واجه المهاجرون صعوبات في العثور على وظيفة فور وصولهم إلى البلاد، فاضطر البعض إلى اللجوء للاستثمارات الأولية، مما أدى إلى استهلاك المدخرات ليصبح اقتراض المال أمرا حتميا. وبالنسبة لأفقر الفقراء كان تحقق مثل هذا المشروع دربا من الأوهام. فقد أشارت دراسات لا حصر لها إلى أن الفقر قد قيد حركية الأفراد في الماضي إلى حد بعيد.

عكس تاريخ هجرات الجماعات (كالهجرة من أوروبا عبر المحيط الأطلسي في القرن الـ ١٩) في بعض أجزائه إقدام أجدادنا وقوة عزيمتهم، بينما تجلى الانفتاح والتسامح وبعد النظر في أجزاء من تاريخ الهجرات الوافدة (كهجرة المسيحيين الفرنسيين أو «بولنديي منطقة الرور»). إلا أنه نادرا ما تُعتَمَد مثل هذه الجوانب التاريخية في المعالجات الراهنة التي تتطرق لمفهوم الهجرة والمقصود بها. ويبقى هذا الجدل منحصرا في إطار منظور واحد يرى الهجرة كنتيجة للصراعات والكوارث والعجز، ويرى أن عواقبها تهدد الأمن والرخاء والتجانس الاجتماعي والثقافي. لتبدو الهجرة في النهاية وكأنها خطر يتطلب رعاية سياسية مشددة، وقائية وتتبعية على حد سواء. ولا يُنظَر عادة إلى تجارب الهجرة والنتائج العلمية (التاريخية) المتوفرة حول الهجرات المكتملة باعتبارها نبعا يفيض بالصفاء والهدوء الاجتماعي في إطار التطرق إلى قضية الهجرة.

يوخن أولتمر من مواليد عام ١٩٦٥. يدرس التاريخ المعاصر بمعهد أبحاث الهجرة والدراسات المابين ثقافية (IMI) بجامعة أوسنابروك. أحدث إصداراته، كتاب: (Globale Migration.Geschichte und Gegenwart) (الهجرة العالمية. تاريخها وحاضرها). صدر هذا المقال للمرة الأولى في العدد ١٨٣ من مجلة Kursbuch في سبتمبر ٢٠١٥ عن دار نشر Murmannn Publishers.

ترجمة: هبة شلبي

■ ليست أزمة اللاجئين بجديدة، حتى وإن كانت تسير حاليا بسبب الحرب الأهلية في سوريا باتجاه بلوغ ذروة جديدة. من جهة أخرى هناك محاولات لإخفاء الخلفيات والمقدمات الخاصة بأزمة اللاجئين في الاتحاد الأوروبي. في المقال التالي يوضح لنا الناشط والباحث في مجال الهجرة بيرنهارد شميد أسباب التطورات السياسية الأخيرة.

نظام معاملة اللاجئين الأوروبي الجديد

تصدير الحدود واستيراد البشر

بيرنهارد شميد BERNHARD SCHMID



مخيم إيدوميني للاجئين، آذار/مارس ٢٠١٦.
Photo: Kai Wiedenhöfer

إن لم تتقبلوا الأمور كما أريدها أنا ـ فسأرسل لكم المهاجرين الذين انتهى بهم المطاف رغما عنهم عندي هنا، مع أنهم يحلمون بأن يصلوا إلى الأراضي الخاضعة لسيادتكم. هكذا تقريبا كانت الرسالة التي يجلبها معهم العديد من رؤساء ورؤساء وزارات الدول عندما يخوضون مفاوضات مع قوى الاتحاد الأوروبي المختلفة. ولقد عبر الزعيم الليبي السابق معمر القذافي (الذي حكم البلاد من ١٩٦٩ إلى ٢٠١١) عن ذلك عام ٢٠١٠ ـ أي قبل عام من الإطاحة به ووفاته ـ بالكلمات التالية الموجهة لدول الاتحاد الأوروبي: „كي توقف ليبيا الهجرة يتوجب على الاتحاد الأوروبي أن يدفع لها خمسة مليارات دولار سنويا. علينا وقف هذه الهجرة غير الشرعية وإلا سيصبح مستقبل أوروبا أسود، وليس أبيض ومسيحيا. ينبغي علينا وقف هذه الهجرة غير الشرعية وإلا ستصبح أوروبا سوداء (...) أوروبا ستتغير". هذه الصياغات جاءت بالأحرى لتخاطب عقلية جزء معين من الطبقة السياسية والسكان في الاتحاد الأوروبي أكثر من كونها كانت تعبر عن رؤيته الخاصة. لأن النظام الليبي السابق كان ينظر أكثر للهجرة من أفريقيا جنوب الصحراء من زاوية الاستغلال الاقتصادي وليس من زاوية كيفية وقفها. آنذاك انضاف إلى مواطني ليبيا الغنية بالنفط والبالغ عددهم خمسة ملايين، نحو مليونين من السكان الذين كانوا يقومون بجزء كبير من الأعمال التي تحتاج جهدا بدنيا.

أما رئيس الوزراء التركي السابق والرئيس الحالي رجب طيب إردوغان فقد تبنى رؤية مشابهة، حين طالب الاتحاد الأوروبي في فبراير/شباط ٢٠١٦ مجددا بدفع ثلاثة مليارات يورو سنويا، للإبقاء على اللاجئين السوريين على أراضيه. لكنه سعى أيضا للمطالبة بتنازلات سياسية، مثلا تقبل هجمات الدولة التركية على الأكراد وعلى حرية الصحافة. وقد حذر إردوغان في ١٦ فبراير/شباط من هذا العام من أنه لو لم يتم إرضاء مصالحه، فسيرى الأوروبيون: „ليس مكتوبا على جبيننا أننا أغبياء. لا

تظنوا أن الطائرات والحافلات موجودة هنا بدون سبب. سنقوم باللازم." والمقصود بـ „اللازم" هنا بوضوح هو السماح للاجئي الحرب الأهلية السورية الذين يقيم منهم مليونان في تركيا بعبور الحدود أو إرسالهم لعبور هذه الحدود مع أوروبا.

إتقان هذه اللعبة لا يقتصر فقط على الدول التي يصنفها بعض الأوروبيين باحتقار باعتبارها „أقل تحضرا". ففي داخل الاتحاد الأوروبي يوجد أيضا ممثلون رفيعون لدولهم يتقنون هذه القواعد بامتياز ويطلقون تهديدات مماثلة في الفضاء السياسي. فمثلا في الثالث من مارس/آذار ٢٠١٦ وجه وزير الاقتصاد الفرنسي إيمانويل ماكرون إلى بريطانيا إعلانا مفاده أنه لو قررت لندن في ٢٣ يونيو/حزيران الخروج من الاتحاد الأوروبي، فلن تستمر فرنسا طويلا في منع آلاف المهاجرين الذين يعيشون في كاليه ولا غراند ـ سينت على الساحل الفرنسي للمانش في أوضاع أشبه بأحياء الصفيح من العبور إلى بريطانيا. فهؤلاء الناس يتحينون فقط الفرصة لعبور القناة مختبئين في سفينة أو شاحنة أو بالعبور على الأقدام عبر نفق القطارات الأوروبي بين فرنسا وإنجلترا. تقوم السلطات الفرنسية بمنعهم وتحصل مقابل ذلك من نظيرتها الفرنسية على أموال، بلغت في عام ٢٠١٦ نحو سبعين مليون يورو وأضيف إلى هذا المبلغ في مارس/ آذار ٢٢ مليون يورو.

تاريخ منظومة الحدود المُرّحلة

لا تصبح هذه التهديدات „فعالة" إلا على ضوء تعامل بعض الدول الأغنى بانتظام مع دول أخرى ـ تقع جغرافيا بين البلدان الأصلية للمهاجرين أو اللاجئين وأراضيها ـ باعتبارها «منطقة عازلة» و «مكانا لتسكين» المهاجرات والمهاجرين غير المرغوب فيهم. وفي السنوات العشر الأخيرة صارت منظومة الحدود المُرحلة أو المُقدمة التي تتولى فيها دول أخرى وظيفة إبعاد المهاجرين كبديل عن الدول الرافضة لاستقبالهم، أكثر تنظيما واتقانا.

في ١٠ و ١١ يونيو ٢٠٠٦ أُطلق في العاصمة المغربية الرباط من خلال مؤتمر وزاري بعنوان: «المؤتمر الوزاري الأوروبي الأفريقي حول الهجرة والتنمية» ما يُعرف بعملية الرباط. وقد شارك في المؤتمر نحو خمسين من دول شمال وغرب أفريقيا وكذلك الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي. وتعقد الدول المشاركة بصورة شبه منتظمة مؤتمرات مشتركة تُناقش فيها قضايا الهجرة ويجري خلالها التشاور بشأن إمكانية منع الهجرة (في الحالات غير المرغوبة من الدول الكبرى) من منشأها من خلال «التعاون التنموي المُحسّن». لكن عمليا اتضح دائما أن ذلك لم يكن سوى مجرد ورقة توت، لأنه لم يحدث أي تحسين الأوضاع المعيشية في مناطق «الجنوب» ـ بل على العكس، فحتى في بلد مستقر اجتماعيا نسبيا كالسنغال، تضيع من الناس فرص كسب الرزق، مثلا كنتيجة لاتفاق الصيد البحري مع الاتحاد الأوروبي تقضي الأساطيل الكبرى على الثروة السمكية وبالتالي يفقد سكان المناطق الساحلية أساس عيشهم. لكن إعلانات النوايا اللفظية تهدف دائما لإضفاء الشرعية على سياسة إقصاء (أحادية الجانب) من قبل دول الشمال، باسم «الجهود المزعومة لتوفير ظروف معيشية أفضل للناس في بلادهم».

ربما يصعب أيضا على «عملية الرباط» مع وجود أكثر من خمسين دولة مشاركة، أن تحرز نتائج ملموسة. وقد بُذلت في مؤتمرين تاليين في ٢٥ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٨ في باريس (في إطار الرئاسة الفرنسية للاتحاد الأوروبي) وفي ٢٣ نوفمبر / تشرين الثاني ٢٠١١ في داكار، محاولات لتعميق التعاون. لكن القرارات الرئيسية بشأن منظومة الهجرة عبر الوطنية كانت تتخذ رغم ذلك على مستوى العلاقات الثنائية بين الدول أو بين الاتحاد الأوروبي ودول منفردة من بلدان الجنوب، أكثر من اتخاذها في الإطار الجماعي. وصفت وسائل الإعلام الكبرى في فرنسا (التي تتمتع بدور محوري، نظرا لمكانتها كقوة استعمارية أو سلطة حماية سابقة سواء في المغرب أو في معظم دول غرب أفريقيا) «عملية الرباط» في عام ٢٠١٥ بأنها قد „خمدت". في الوقت ذاته تسعى القوى الفاعلة في الاتحاد الأوروبي إلى إعادة تنشيط هذه العملية من خلال إحاطة الدول المشاركة بدائرة أخرى أكثر تركيزا، من أجل إشراك دول أخرى في أفريقيا في منظومة مراقبة الهجرة.

لهذا أُطلقت عام ٢٠١٤ «عملية الخرطوم» التي تهدف إلى توسيع مراقبة الهجرة أيضا لتشمل أيضا شمال شرق القارة والقرن الأفريقي. وفي هذا الإطار لا يُسعى فقط للتعاون مع الديكتاتورية الوحشية في إريتريا باعتبارها إحدى الدول الرئيسية التي يفر منها اللاجئين ـ والتي توصف بأنها «كوريا الشمالية الأفريقية»، بل تُعطى أيضا على وجه الخصوص أهمية أكبر للنظام العسكري ذي الأساس الإسلاموي في السودان. والمثير أن رئيس الدولة (منذ عام ١٩٨٩) عمر البشير لا يستطيع السفر إلا في نطاق محدود، نظرا لوجود مذكرة اعتقال بحقه من المحكمة الجنائية الدولية. وقد وجهت القوى الكبرى انتقادات لحكومة جنوب أفريقية بزعامة جاكوب زوما في يونيو/حزيران ٢٠١٥ لأنها لم تمنع البشير من دخول البلاد ولم تمنعه من المغادرة.

في الحادي والعشرين من أكتوبر/تشرين الأول زار رؤوساء الممثليات الدبلوماسية لبريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وهولندا والسويد معسكرا للاجئين في ودشريفي السودان. وبهذه المناسبة أقر رئيس الوفد الدبلوماسي الأوروبي إلى الخرطوم توماس أولينسي أن: „تعاونا أوثق بين الاتحاد الأوروبي والسودان أمر ضروري". وذلك بزعم توفير „حماية أفضل" لمن يعانون حقا من الاضطهاد السياسي وأيضا لتوفير حماية أفضل للحدود „وتوفير بدائل للمهاجرين" ـ للتمييز اصطلاحيا بينهم وبين «اللاجئين»، أي لهؤلاء الذين لا يُحبذ أن يواصلوا الترحال باتجاه أوروبا، ولا يُقبلون كـ «لاجئين سياسيين» وفقا لمعاهدة جنيف. وهو ما لا يعني شيئا آخر سوى إبعادهم بقدر الإمكان عن البحر المتوسط وفي جميع الأحوال عن أوروبا.

المغرب مثالا

قبل أن تشكل مآسي غرق القوارب في البحر المتوسط مادة لعناوين الأخبار، كان ثمة حدود خارجية للاتحاد الأوروبي تسببت في سقوط وموتى وأثارت جدلا، وهذه الحدود تمر عبر المغرب. والجدير بالذكر أنها ليست حدودا بين المغرب وبلد آخر، ولكنها تمر عبر المغرب، حيث يوجد جيبان إسبانيان وبالتالي ينتميان لأراضي الاتحاد الأوروبي على التراب المغربي. لأسباب تاريخية، لها بالتأكيد جذور استعمارية، لا تزال مدينتا سبتة ومليلة (ومجموع سكانهما يبلغ ١٧٠ ألفا) تنتميان إداريا إلى إسبانيا وبالتالي إلى الاتحاد الأوروبي. في ليلة ٢٨ إلى ٢٩ سبتمبر/أيلول ومرة أخرى في ليلة ٥ إلى ٦ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٥، وقعت محاولات مكثفة لعبور الحدود، في المرة الأولى على الحدود الخارجية لسبتة والمرة الثانية على الحدود مع مليلة، وذلك عبر هجوم مئات المهاجرين، ومعظمهم من جنوب الصحراء على السياج الحدودي المحروس وحاولوا بالاستعانة بثقلهم الجماعي دفعه للانهيار (أو تخطيه، باعتبار أن الوضع كان سيفوق طاقة قوات الحراسة تماما). يتعلق الأمر بأساليب لا تزال تستخدم ليومنا هذا. أسفرت عملية إجهاض محاولة عبور الحدود الجماعي عن مقتل ١٤ شخصا. وحتى اليوم لم يصدر أي حكم بحق المسؤولين عن ذلك، ولسنوات ظل موظفو الحدود المغاربة والإسبان يحملون المسؤولية لبعضهما البعض.

لقد فجرت قضية موتى سبتة ومليلة نقاشات عابرة للحدود في مختلف دول الاتحاد الأوروبي حول الموتى على الحدود الخارجية للاتحاد الأوروبي على ساحل البحر المتوسط. وخرجت تظاهرات في العديد من بلدان الاتحاد الأوروبي وحملات وندوات وكتب منشورة حول هذا الموضوع وبذلك أمكن خلق اهتمام قوي بمشكلة منظومة الحدود القاتلة على الحدود الخارجية للاتحاد الأوروبي ـ في الدوائر العلنية ذات الصلة. أما في المغرب فكان للمشكلة تبعات أخرى. فبعد الحادث بقليل جرت حملات مداهمة واعتقالات على نطاق واسع للأفارقة المقيمين في المنطقة (أو سكان جنوب الصحراء، كما يطلقون عليهم في الأوساط السياسية المغربية، وهو مصطلح يُحبذ استخدامه بدرجة كبيرة، لأنه يشير إلى الأصل الجغرافي لهؤلاء وليس إلى لون البشرة المفترض)، والذين يسعون لعبور الحدود إلى أوروبا. وأُرغم ٣٠ ألفا منهم على ركوب حافلات لإبعادهم عن المنطقة القريبة من الحدود. ويزعم أن نحو ألف منهم على الأقل قد تُركوا في الصحراء بجنوب المغرب، مثلا بالقرب من الحدود مع الجزائر أو مع موريتانيا (في الصحراء الغربية). لكن هذه المعلومة تنفيها السلطات المغربية رسميا. رغم أن هذه السلطات نفسها قد وقعت فجأة تحت ضغط دولي كبير وأرسلت فرق بحث للعثور ثانية على هؤلاء المطرودين، قبل أن يموتوا عطشا... ومع أن المراقبات والمراقبين يرجحون وقوع حالات وفاة خلال هذه العملية إلا أن السلطات المغربية تنفي ذلك نفيا قاطعا.

تقنين غير المشروع

مع ذلك تكمن إحدى خصوصيات تطور قضية الهجرة في المغرب في أن السلطات قد بدأت في خريف ٢٠١٣، وبالتوازي مع الإجراءات القمعية «سياسة لتقنين الأوضاع» للمهاجرين والمهاجرات المقيمين في البلاد وذلك على نطاق واسع نسبيا. وقد صدر إعلان من القصر الملكي في سبتمبر/أيلول ٢٠١٤ وتم إقراره وتطبيقه بشكل ملموس في نوفمبر/ تشرين الثاني من العام ذاته. وجاء القرار كنتيجة لإدراك أن عشرات الآلاف من المهاجرين والمهاجرات ـ لقد قُدر عدد من يعيشون في المغرب منذ فترة طويلة من دون أوراق (من لا يملكون تصاريح إقامة) بثلاثين ألف شخص ـ قد وجدوا في المغرب مستقرا لحياتهم. ففيه يعملون ويُعالجون ويرسلون أبناءهم إلى المدارس.

في الشهور الأولى بعد بدء «عملية التقنين» تمت تسوية أوضاع إقامات ٦٠٠٠ شخص. وفي المجمل مُنح نحو ١٤ ألف تصريح إقامة خلال فترة تطبيق هذه السياسة التي امتدت لعام ونصف العام. ولقد شمل تطبيقها في الأغلب المهاجرين من جنوب الصحراء، لكن القصر الملكي أدخل أيضا الأوروبيين المقيمين في المغرب بصورة غير شرعية ضمن هذا الإجراء. وخصوصا من جنوب إسبانيا المتأزمة اقتصاديا، إذ هاجر عدد غير قليل من مواطنيها في السنوات الماضية إلى المغرب لتجربة حظهم، مثلا من خلال تقديم عروض فنية للسياح أو لكسب عيشهم من خلال العمل لدى العائلات المغربية الغنية. وهؤلاء المهاجرون من طراز آخر لم يفكروا عادة في طلب تصريح إقامة، لكنهم كانوا من الناحية القانونية «غير شرعيين» مثلهم مثل هؤلاء القادمين من جنوب الصحراء.

لكن هذه السياسة كانت تنطوي من البداية على قدر كبير من التناقض. لأنها كانت تعني من ناحية التخفيف كثيرا عن هؤلاء الناس الذين يعيشون في الأغلب منذ سنوات في المغرب ويعملون فيه أيضا بانتظام ـ بعد أن علِقوا على المدى الطويل في هذا البلد المغاربي رغم أنه هدفهم الأصلي كان أوروبا. في الوقت ذاته رافق الاتحاد الأوروبي هذه السياسة منذ البداية ـ لقد مارس عموما ضغوطا هائلة على المغرب لحثه على اتباع الخطوط العامة لسياسة الهجرة الأوروبية ـ ولكن بهدف التمكن من إغلاق باب الهجرة إلى أوروبا عبر توفير أفق بديل في «الطريق إلى هناك».

في ٩ فبراير/شباط ٢٠١٥ أنهى النظام المغربي «سياسة تقنين الأوضاع» فجأة وبشكل حاد وعنيف. وقد أُعلن الغاؤها عبر مؤتمر صحفي للوزير المنتدب في وزارة الداخلية الشرقي الضريس. وبعدها بساعتين بدأت حملة مداهمات واسعة على مخيمات اللاجئين وحملات اعتقال في الغابات المحيطة بمدينة الناضور ووُزعوا على المدن البعيدة عن الحدود، وفي الأغلب في جنوب البلاد. وبعد عشرة أيام كان لا يزال هناك ٤٥٠ شخصا محتجزين لدى الشرطة أو في سجن الترحيلات.

وجرت محاولات ترحيل جماعي لعشر بلدان مختلفة، لكنها لم تكن دائما ناجحة.

التعامل مع مهربي البشر في الوقت الحالي يتمتع من يُنعتون بـ «مهربي المهاجرين» الذين ينشطون في ليبيا بأسوأ سمعة إعلامية في أوروبا. لقد وصفهم الرئيس الفرنسي فرانسوا هولاند في أبريل/ نيسان ٢٠١٥ في تصريح لقناة Canal + بأنهم „إرهابيون" ـ وهو مصطلح، يعطي على ما يبدو المبرر لاتخاذ أي إجراء ضدهم تقريبا.

في أكتوبر/تشرين الأول ٢٠١٥ بدأت المرحلة الثانية لعملية الاتحاد الأوروبي المسماة Euro Navfor Med أمام السواحل الليبية. ويفترض أن تهدف إلى تدمير السفن المستخدمة في تهريب المهاجرين عبر البحر المتوسط. لكن من المفترض أيضا في مرحلة لاحقة إغلاق الطرق البرية المؤدية إلى الموانئ المستخدمة لهذه الغرض.

مع ذلك يبقى ثمة تساؤل عمن يريد مكافحة «المهربين» ولماذا وبأية تهم؟ فلشخصية من يعمل «مهربا» للمهاجرين وجهان. فهو يقدم من ناحية خدمة لأناس في محنة، ما كانوا سيحصلون عليها بطريق آخر، وهي نقلهم عبر الحدود الخارجية للاتحاد الأوروبي المراقبة والمؤمنة جزئيا عسكريا أو بشكل شبه عسكري. ولكنهم من ناحية أخرى يقومون بذلك لمنفعتهم الشخصية. في منتصف أبريل/نيسان ٢٠١٥ أعلنت السورية المقيمة في المنفى مايا الخشن في برنامج «غونتر ياوخ» الحواري في التلفزيون الألماني أنها ممتنة للمهربين: „لم يكن أمامي سوى هذا الطريق اللعين. والآن تريدون إغلاقه أيضا؟".

كما هي الحال لدى أي كيان يسعى لدخول «السوق» في ظل ظروف المنع العام، تحاول هذه المجموعة من التجار أن تضمن احتكار السوق وأن تحقق أكبر ربح ممكن. وإذا كانت مهنة «المهربين » قد مُورست في الثمانينات وكذلك في التسعينات بشكل غير محترف نوعا ما من قبل العارفين بالمنطقة، فقد تحولت منذ وقت طويل إلى صناعة وخضعت لحد ما لعملية تركيز اقتصادي.

وتلعب ليبيا في هذا المجال دورا محوريا، ولا يعود ذلك لأسباب جغرافية فقط. فمثلا في عام ٢٠١٤ سافر ٢٢٠ ألف شخص «بصورة غير مشروعة» عبر البحر المتوسط، ووصل ١٧٠ ألفا منهم إلى إيطاليا. وحوالي ١١٠ ألف من هؤلاء انطلق من السواحل الليبية. والمجموعة الأكبر من هؤلاء كانت من لاجئي الحرب السوريين وكذلك لاجئين من القرن الأفريقي: من إريتريا، «كوريا الشمالية الأفريقية» ذات النظام المفرط في العسكرية، ومن الصومال التي دمرتها الحرب الأهلية.

يرتبط اتخاذ كثير من المهاجرين من السواحل الليبية منطلقا لرحلتهم إلى الاتحاد الأوروبي بإغلاق طرق الهجرة الأخرى. لقد كان لاجئو الحرب السوريون يفضلون حتى عام ٢٠١٣ السفر عبر مصر، حيث يوجد طريق بحري إلى قبرص أو إلى السواحل اليونانية. لكن منذ تغيير النظام الحاكم في يوليو/تموز ٢٠١٣ ومجيء عبدالفتاح السيسي إلى سدة الحكم وضعت الدولة المصرية نهاية قاسية للتسامح مع المعارضين السوريين لبشار الأسد، وحاليا يخشى هؤلاء تسليمهم لزبانية نظام الأسد. من جانب آخر هناك ثلاثة لاجئين من إريتريا، عرض الفرع الليبي لتنظيم «الدولة الإسلامية» الإرهابي شريط فيديو لإعدامهم في ١٩ أبريل/نيسان ٢٠١٥ وكانوا يعيشون في السابق في إسرائيل كطالبي لجوء. هذا ما أوردته صحيفة هآرتس الإسرائيلية بعد يومين من اغتيالهم. ومنذ بداية أبريل/ نيسان من العام الماضي، رحلت السلطات الإسرائيلية اللاجئين الأفارقة بصورة مكثفة إلى رواندا وأوغندا، بعد أن تعهد البلدان الواقعان في شرق إفريقيا باستقبال اللاجئين ـ حتى هؤلاء الذين لا ينتمون للبلدين، مثل اللاجئين السودانيين والإريتريين. وكان اللاجئون الثلاثة قد انطلقوا مرة أخرى بعد ترحيلهم من إسرائيل عبر السودان وليبيا ليجربوا حظهم.

بيرنهارد شميد محام وكاتب وصحفي من مواليد ١٩٧١ بجنوب ألمانيا، يعيش منذ عام ١٩٩٥ في باريس. ويتناول في كتاباته قضايا أفريقيا الفرانكفونية ودول المغرب العربي والهجرة واليمين المتطرف في فرنسا وأوروبا. يصدر له قريبا كتاب: Front(ex) linie Mittelmeer (البحر المتوسط كخط حدودي). كُتب هذا المقال مطلع شهر مارس/ آذار، ولهذا لم يتضمن التطورات الجديدة.

ترجمة: أحمد فاروق

■ ترفض الكثير من البلدان الأوروبية وبعناد شديد استقبال اللاجئين، ومن ضمن هذه البلدان بولندا، وهو أمر يثير الاستغراب، ويتنافى مع الخبرة التاريخية لهذه البلدان التي عانت مرارا من تغيير الحدود وعانى مواطنوها من التهجير والنزوح. في هذا المقال يوضح الكاتب البولندي ستانيسواف ستراسبورغر خلفيات هذه العقلية السائدة في بلاده ويواجهها بتاريخ عائلته وبالأدب البولندي.

عن اللاجئين والأبطال المزيّفين

بولندا مثالا

ستانيسواف ستراسبورغر STANISŁAW STRASBURGER



عندما كنتُ فتى..
ناداني أبي وكلّمني قائلا:
الإحساس هو الأهمّ
إصغ لصوت قلبك..

هذه كلمات أغنية يعود تاريخها إلى ما يزيد على أربعين عاما لفرقة (Breakout) التي كانت تعزف وتغني موسيقى البلوز والروك.

كانت موسيقى الروك آنذاك تشكّل مُتنفّسا للعديد من الناس في بولندا الشيوعية، خاصّة وأنّ السلطات آنذاك لم تكن تنظر بعين الرضا إلى الصرعات الغربية للشباب ذوي الشعر الطويل. فقد كانت هذه الموسيقى تعبر عن الشوق إلى عالم آخر، عالم الحريات والتنوّع، الذي كانت تتميز بها مجتمعات الدول في ما وراء الستار الحديدي.

عندما كنت فتى كنتُ أقضي الكثير من الوقت مع أمي. لا أزال أذكر حتى اليوم كيف كنّا نجلس حول طاولة في غرفة سمّيناها الكبيرة، وكانت غرفة للطعام وصالونا وغرفة لنوم والديَّ. هناك كنا نقرأ معا الكتب التاريخية أو كتب الرحلات. في الغرفة الأخرى التي كنت أتقاسمها مع أختي الصغرى كانت هناك خريطة كبيرة للعالم معلّقة على الجدار، تتضح بالألوان في واقع الحرب الباردة الداكن، المليء بالحدود التي لا يمكن عبورها. كانت خريطة طبيعية، لا وجود فيها لتقسيم سياسي أو اقتصادي أو عرقي، كأنّ الخريطة وبكل بساطة لم تأخذ كل ذلك بعين الاعتبار. بهذه الروح كانت أمي تكرر في الاستراحة بين قراءة كتاب وآخر: أتمنى من كل قلبي أن تصبح مواطنا عالميا، أن تشعر وكأنك في بيتك حيثما تكون، وأن تتفهّم الآخرين ممن تقابلهم.

لم تستطع أمي ولا أمها، أي جدتي، السفر رغم أنهما على الأغلب كانتا تحلمان بذلك.

من الحكايات المتميّزة في عائلتنا، حكاية والدِ جدتي وكان فتى متمرّدا في مدرسة في الضواحي في ذلك الجزء من بولندا، الخاضع لروسيا القيصرية آنذاك. قام وقد طغى عليه شعور

مخيم إيدوميني للاجئين،
آذار/مارس ٢٠١٦.
Photo: Kai Wiedenhöfer

وطني أو من باب العنتريات بمقلب خطير، فقد ثقب عيني صورة القيصر الروسي المعلقة في الصف. كان من الممكن أن يُنفى إلى حيث الدببة البيضاء، لذلك هرب، تجنبا لهكذا عقوبة، وصار لاجئا يجوب البلاد والعباد (كان في الولايات المتحدة وأمريكا الجنوبية). في الحرب العالمية الأولى عاد إلى أوربا ليلتحق بالجيش البولندي الذي بدأ يتشكّل في فرنسا، وفي النهاية عاد إلى وطنه الذي حصل على الاستقلال.

أمي وجدتي تقصّان حكاية والد جدتي هذه بحنين ولكن لأسباب مختلفة، وتتأسفان لأنهما لم تستطيعا أن تشاهدا العالم لسنوات طويلة حتى ولو كان المسبب هو الظلم. حينها كنت فتى، وفي كل مرة بمناسبة أعياد الميلاد، كنّا نتبادل التمنيات مع جدتي فأقول: حين أكبر وأتحصل على بعض المال، سآخذكِ في رحلة. ونفّذتُ ذلك وسافرنا معا إلى باريس وأمستردام وكولونيا وقرطبة وغرناطة.

الكوسموبوليتية والوطنية

ولم تكن التربية الكوسموبوليتية التي تلقيتها من النساء في عائلتي التي لا تتفق مع حواجز الحرب الباردة، مسلوبة من العناصر الوطنية. تُرى كيف يمكن أن تكون قصة حبِّ الوطن بناء على تاريخ ثلاثة أجيال من عائلتي من طرف أمي؟

في آخر مراحل بولندا المُقسَّمة ظهر الجيل الرابع من أبناء الكومونولث البولندي الليتواني (أي دولة الليتوانيين والبولنديين حتى سنة ١٧٩٥)، وبدأ يستفزّ الشرطة القيصرية ومنهم والد جدتي. فبعد هذا التاريخ ولمدة ما يزيد على ١٢٠ سنة مُحيَتْ بولندا من الخريطة وقُسّمت أراضيها بين روسيا وبروسيا والنمسا. لن أعرف أبدا هل كان جدي سيتعامل في ظروف مغايرة، مع سلطة وطنية بنفس النفور، فلربما دوافعه الاشتراكية جعلته يقف ضد كل طاغية سواء كان بولنديا أو أجنبيا؟ على أية حال لم يكد يسمع بتشكيل الجيش البولندي حتى سارع إليه وترك حياته السعيدة في البرازيل كما كان يتذكّرها ليرمي بنفسه إلى مصير الجنود المجهول. هل حبّ الوطن دفعه إلى ذلك أم الحنين للأحبة؟ هل حياته في البرازيل لم تكن كما وصفها؟ لستُ متأكدا هل يستطيع هو بنفسه أن يردّ على هذه الأسئلة، لو كان حيّا.

وقد استنتجتُ حين كنتُ فتى صغيرا أنّ القرارات البشرية معقّدة، ونادرا (على فرض أن هذا ممكن) ما يمكن إرجاعها إلى حافز واحد بسيط، حتى لو كانت الوطنية حافزا.

عاشت ابنتهُ أي جدتي طوال الحرب العالمية الثانية تحت الاحتلال الألماني في وارسو. كانت آنذاك تنشط في منظمة سريّة ذات طابع أميَل إلى المحافظة وتحمل مبادىء وطنية بشكل جليّ إن لم نقل قومية متعصبة ويمتد تاريخها إلى ما قبل الحرب. أمّا شقيقها فقد انتسب إلى منظمة أخرى يسارية. فهل هذا يعني أنّ جدتي كانت قوميّة وجدي شيوعيا؟ لا أبدا.. كانت تقول حين أسألها عن ذلك. أتعرف كيف كان الوضع تحت الاحتلال؟ كل شيء كان سريّا. وكم كان يفزعنا أن نقع بأيدي الغستابو، لذا انضممنا إلى المنظمات التي لنا فيها معارف، فالمهم أن نحارب المحتل أما البرنامج السياسي فكان ثانويّا. وشاءت الأقدار أن يموت شقيق جدتي مباشرة بعد انتهاء الحرب في حادث أثناء أعمال بناء.

لم تكن السلطات الشيوعية آنذاك راضية على منظمتها، وكان على جدتي في مرحلة بولندا الشعبية أن تَتَستّر على نشاطها السري ضد المحتل الألماني. وهكذا لم يقتصر الأمر على عدم تقدير السلطات لنضالها من أجل حرية بولندا، بل تجاوز إلى خلق المشاكل لها. فأُصيبت بخيبة أمل عمّقت مشاعرها بأنه ربما كان من الأفضل أن تسخّر نفسها لتربية أخيها بدلا من العمل من أجل الوطن حيث كانت مستعدّة للتضحيّة بحياتها وحياة أحبائها لتغير مسار التاريخ كأي بطل رومانسي. فمقالب أخيها الصبيانية خلقتْ له مشاكل مدرسية أدّت بالنتيجة إلى وقوعه في أيدي مجموعة من أصحاب السوء كما كانت تسميهم. فلو كان غير ذلك لما عمل في البناء ولَبقي حيّا.

منذ صغري علمتني جدتي شيئا واحدا وهو ألا أثق بالافتتان المترسخ في بلادي بالأبطال الرومانسيين.

تشكّلت وطنية جدتي في ظروف معقدة من الواقع الشيوعي. لم يكن الزمن زمنَ الأبطال بل صار حب الوطن حراما. وكانت الدعاية تغرس في عقول الناس، غير آبهة بحدود الدول القائمة والمعسكرات السياسية، بأنّ الهوية القومية صارت من مُخلّفات البرجوازية، تصلح لسكّان الغرب الفاسد. البروليتاريا كانت حاضرة في النظام الشيوعي وذلك بغض النظر عن اللون أو اللغة أو العرق.

هذا من ناحية، ولكن من ناحية أخرى بنى الشيوعيون بعد الحرب العالمية الثانية على أنقاض دولة ما بين الحربين العالميتين البولندية المتعددة القوميات والديانات، بنوا بلدا ذا نمط واحد. فرُسِّمت حدود جديدة وأجريت تطهيرات عرقية. كان برنامج التربية المتحرر يروّج للنهوض الاجتماعي والمساواة بين الجنسين ويسعى لإزالة التنوع بين الأقاليم في مجال اللغة البولندية والأدب أو رؤية التاريخ.

وعلى عكس ما قد يُظنّ فإن جمهورية بولندا الشعبية، كانت دولة قومية، فقد كانت السلطة تروّج لنموذج تربوي محوره الأمة البولندية. فالتعبير الشائع «الشعوب الشقيقة» رغم أنه يؤكّد على الصفة الأممية لدول المنظومة الاشتراكية، لكن السلطة واقعيا كانت تدعو إلى فكرة الدولة القومية بالمعنى الإثني. على أية حال كان هذا واضحا في حالة جمهورية بولندا الشعبية.

ومن المثير للفضول أن الأسطورة التأسيسية لجمهورية بولندا الشعبية ركّزت على الدولة البياستية (Piast) من التاريخ البولندي، فقد كانت سلالة البياست أول أسرة ملكية بولندية. وفي التبسيط الدعائي كانت دولتهم الإقطاعية، تقع تقريبا في

نفس حدود بولندا الشيوعية لذلك كانت هذه الفترة مرجعيتهم. وكانت نظرة السلطات انتقادية تجاه الكومونولث البولندي الليتواني الذي نستطيع أن نُسميه بلغة هذه الأيام فيدرالية متعددة الثقافات، وهي دولة امتدت وازدهرت ما بين بحر البلطيق والبحر الأسود في ١٥٦٩ ـ ١٧٩٥. ومن الجدير بالذكر أن القوميين ما قبل الحرب العالمية الثانية والحاليين يفاخرون بأسطورة بولندا البياستية.

لنعدْ لأمّي، فمن هو الوطني الذي حلمت به والذي ترعرع في مرحلة أفول الشيوعية؟ إنه المواطن العالمي ذاك. ولكن من هو هذا المواطن؟ هو إنسان يعي تعددية الأبعاد في ماضي بلاده، متجذّر في لغته الأم، يجيد عدة لغات أخرى. إنّه كما في تقاليد أدب الرحلات العربي (لم يكن والديّ يعرفان الكثير عنه، ففي عملية تربيتنا كانا يعتمدان القلب كما جاء في الأغنية المذكورة) ندرك أنّه ليس من المستحيل أن نتجاوز المسافة التي تفصلنا عن الآخر والناجمة عن الاختلاف في اللون والعرق والمعتقد ما هو إلا اختلاف فردي عَرَضي، وعلينا أن نقرّب المسافة رغم صعوبة التحديات أحيانا.

من الواضح أن الوطنيَّ الذي تمثّله أمي هو ضرب من الطوباويّة لكنه تجسيد لطوباوية زاهية بالألوان نابضة بالحياة. وصدّقتْ أمي أنّ زمنها قد جاء بعد انهيار النظام الشيوعي في بولندا سنة ١٩٨٩ ومجيء العولمة.

العار

من المؤسف أن الطوباوية الشائعة في بولندا اليوم ليست كذلك. فهي تترفّع عن التجارب الفردية (كما في عائلتي) وهي في طموحاتها الشمولية تفرض هوية واحدة مستقيمة وهي الهوية القومية. وأنا أشك في أنها تستجيب لحاجات الناس. وأجزم أن عناصر الذاكرة العائلية التي أوردتُها لا تشكل حتى ولو هامشا صغيرا من التجارب البولندية، بل على العكس أزعم أنّ أغلب سكّان بلادي كان يحلم بعالم حرٍّ بهيج كالذي كان على خريطة طفولتي، عالمٍ بلا أسوار أو أسلاك شائكة أي بلغة العصر بعالم بلا حدود.

فما الذي يجري؟ نُخبتنا الاجتماعية ـ السياسية تسرق منّا أحلامنا وكأننا في ماتريكس مرعب (Matrix) حيث يتم تنشيط وَهْم سياسي، أيّ شعب على أنّه جماعة إثنيّة تستند إليها الدولة. أي أننا أمام مقولة سياسية ورؤية للثقافة مترابطة و نموذج تربوي ملائم.

ما يجري الآن في بولندا وفي وسط أوروبا وغربها، إحياء للتصور الرومانطيقي للدولة على أنها انبثاق للقوى الحيوية للأمة. في الوهم التوحيدي ـ القومي ذي الطموحات الثورية حقا، تتعرض لغة المناقشات في الحياة العامة لعوامل الحت والتعرية. فتصبح لغة مواجهة بحيث يرقى العنف المباشر ليصبح أداة حاسمة في حل الخلافات. قد تمنح سياسةٌ كهذه إحساسا وهميا بالأمن للاتحاد الأوربي الذي تمزّقه المعضلات، كما تضمن نجاحات انتخابية سهلة.

ولكنها لسوء الحظ لعبة محفوفة بالمخاطر، فقد أثبتت تجارب الأنظمة الشمولية في القرن العشرين أنّ الطبيعة البشرية أمّارة بالسوء. والناس يستغلّون فرصة التسامح مع استخدام العنف وتغاضي أجهزة الدولة عن ذلك، بغض النظر عن المعتقد والموقع على خريطة العالم الذي يعيشون فيه. ففي أقبية الغستابو لم يقم بتعذيب السجناء بضعة متوحشين فقط، بل فعلت ذلك عاملات الطباعة والاختزال في مجلس المدينة، من اللواتي أُرسلن مصادفة لتسجيل محاضر التحقيق، فقد كنّ ينهضن ويركلن بجرأة الضحية المعذبة التي تتلوى من الألم.

أقولها بصراحة: إني أخجل مما تقوم به النخبة في بلادي من تخريب. فبدلا من البحث عن موقع جيد لبولندا في دنيا العولمة هذه، والترويج لفكرة المواطن العالمي بلغةِ أمي، يقوم الكثير من السياسيين بتعميق مشاعر القلق والريبة. وهم يريدون أن يضيفوا إلى أسطورة الشعب العرقي أسطورة الانعزالية أي ضرورة إغلاق الحدود نظرا للخطر المحدق بأبنائنا من قبل الغرباء.

من المروع حقا أن نرى كيف تسود روح التهكم والسخرية في وسائل إعلام التيار المسيطر الآن، ولدى سياسيين على أعلى المستويات. ونرى ذلك بوضوح تام في المناقشات الدائرة في بولندا حول اللاجئين. أتظن أن أحدا سيشغل باله في هذا الموضوع؟ يقول لي واحد من أكثر الصحفيين تأثيرا في إحدى الصحف البولندية. ويتابع: كلنا نعلم أنّ إغلاق الحدود البولندية أو اليونانية أمر غير ممكن. كما أنّ هذا العدد الهزيل، بضعة آلاف، من اللاجئين الذي وعدت وارسو بقبولهم في بروكسل سيذوب كقطرة في بحر ولن ينتبه أحد لوجودهم. نحن خلقنا منهم موضوعا والآن لدينا مادة لنكتب عنها.

وتجدُ نفس الصحفي ساخطا على التعليقات الحاقدة في الإنترنت، ويدعو إلى الالتزام بقيم المسيحية الداعية للتسامح ومحبة الآخر. في الوقت نفسه نجد جريدته تقتات على تسابق البولنديين في الخوف حيث يشعرون بالهلع، لأنهم قد يُضطرّون أن يفعلوا شيئا ما، فيتبرعوا بشيء مما يملكون، على أساس بأنّ هذا يصبّ في مصلحتهم. وتساهم في ذلك وسائل الإعلام والتي يعمل فيها هذا الصحفي. ليس من الضروري أن نذكّر هنا أنّ بولندا كغيرها من البلدان الأوروبية تستطيع استيعاب اللاجئين، بل الكثير من المهاجرين لأنها تحتاج إلى من يسكن ويعيش ويعمل هنا ويصبح جزء منّا.

ولكن من المؤسف أنّه كلما طال إذكاء المخاوف التي حركناها، كلما ازدادت مقاومتها للحجج العقلانية، شيء مُقرف... شيء مُرعب

بولندا ومسألة اللاجئين

في أيّار/ مايو ٢٠١٥ فاز بانتخابات الرئاسة في بولندا بأغلبية ضئيلة مرشّح حزب قومي ـ محافظ. بعد عدة أشهر فاز الحزب نفسه بأغلبية المقاعد البرلمانية ممًّا سمح له بتشكيل الحكومة منفردا. وجاء تصريح محوري لوزير الخارجية الجديد في مسألة اللاجئين ليندرج في إطار الخطاب التاريخي القومي الجديد الذي تدعو له السلطة الجديدة. يقول فاشتشيكوفسكي (Waszczykowski) في حديث لأحد القنوات الإخبارية للتلفزيون العمومي البولندي، وذلك قبل تولّيه الوزارة بقليل: هل من الممكن أن نتصور أننا نرسل جيشا يحارب من أجل سوريا بينما مئات الآلاف من السوريين يشربون القهوة في قلب برلين وهم يتفرجون كيف نقاتل من أجل أمنهم.

ويلفتُ الوزيرُ الانتباه إلى أن الشبان السوريين القادمين إلى أوروبا على العوّامات لا يسألون „عن الماء أو الطعا م أو اللباس بل أين يمكنهم أن يشحنوا هواتفهم النقّالة" وأشار إلى تقاليد النضال البولندية من أجل الاستقلال، وخاصة تشكيل الجيوش في المَهَاجِر التي حاربت من أجل حرية الوطن، وأوحى أن هذا يشكل مثلا يمكن أن يكون قدوة.

يمكننا تلخيص ما قاله الوزير بما يلي: إذا اندلعت الحرب في بلد رجل ما فعليه ألا يهرب منه، بل يحارب، خاصّة إذا كان رجلا شابا. وبالتأكيد لا يمكنه أن يسترخي في المَهَاجر. ثمّ أي لاجيء هذا من يملك هاتفا ذكيّا (Smartphone)؟ فاشتشيكوفسكي (Waszczykowski) يلمّح أنّ هؤلاء ليسوا لاجئين، لأنهم يخدعوننا عندما يطلبون اللجوء ويُزوِّرون الحقيقة بشأن أوضاعهم المالية. أضفْ إلى ذلك أنهم لا يحبون أوطانهم. وهكذا يصمم لهم تاريخا ليس حتى تاريخه، بل تصورا لهذا التاريخ مؤدلج يخضع لتلاعب قومي عسكري. إنها رؤية شمولية في الانتماء إلى مجموعة قومية (الوطن ينادي) تشجّع العنف كأداة ناجعة في النضال السياسي (لو أنهم حاربوا لَهزموا العدو وحرروا البلاد إضافة إلى شوفينية الجنس دور الرجل المحارب) ومن عناصرها أيضا تلك الرومانطيقية في أنّ التاريخ هو عالم الأبطال الذين يغيرون مسارات الأحداث بفضل أعمالهم وتضحياتهم.

نجد الكثير من النفاق هنا، خاصة على لسان وزير بولندي. لأن تجارب البولنديين في القرن العشرين ومرحلة تقسيم بولندا في القرن التاسع عشر، والتي يعرفها الوزير تماما، هي مثال على عكس ذلك تماما. فكلُّ الانتفاضات المسلّحة البولندية التي قامت بمعزل عن الآخرين، سواء في بولندا أو خارجها لم توصل إلى الاستقلال، أو إنهاء الاحتلال أو أي انتصار محقق. وعلى عكس اللغو المنمّق الكاذب للوزير عن التاريخ فإن لبولندا تقاليد عريقة ثقافية وأدبية والتي يعلو فيها صوت المدنيّ. إنه تاريخ عظيم وعظمته تُقاس بمقدار ما يظهر ويشد الخناق على الفرد ويجرّه من الرتابة اليوميّة. تاريخ لا وجود فيه لمقاومة العدو في المقام الأول بل محاولة العيش بشكل عادي، رغم كل شيء.

سأعطي مثالين أدبيين اثنين يسمحان، كما أظن، أن نرى بولندا أخرى تختلف عن تلك التي تروّج لها السلطة الحاكمة الآن. إنها بولندا منفتحة وهي أقرب لتاريخ أسرتي. وعلى الهامش تماما إنها بولندا التي يحتكّ بها كل تلميذ من خلال البرامج المقررة في المدارس. لربما هي بولندا التي تتباين مع أفكار الوزير.

ماتريكس التاريخ الكبير ولربما ساقاهُ

في سنة ١٩٣٩ قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية، قام فيتولد غومبروفيتش (Witold Gombrowicz) وهو واحد من أهم الأدباء البولنديين في القرن العشرين، قام برحلة كصحفيٍّ إلى أمريكا الجنوبية. وفي تلك السنة هاجم هتلر بولندا فقرر غومبروفيتش ألا يعود، وبقي في الأرجنتين. صار لاجئا في حالة مزرية، بدون مال ولا معرفة باللغة الاسبانية، وكان عليه أن يبني مسيرته الأدبية من الصفر.

كثيرا ما يتحدث غومبروغيتش في أعماله عن البولنديّة والوطنية والتاريخ. وكانت أول رواية ذاع صيتها بعنوان «فيرديدوركا» (Ferdydurke)، وقد تُرجمت للإنكليزية والألمانية كما صدرت مؤخرا باللغة العربية. وعلى الرغم من أنّ المسائل القومية لا تلعب دورا في هذه الرواية كما هي الحال في رواية «عبر الأطلسي» أو «إباحية» إلا أني سأتحدث عنها. خاصّة وأن الحكومة الحالية عندما كانت في السلطة قبل ذلك في سنة ٢٠٠٧ قامت بسحب هذا الرواية من برامج المطالعة الإجبارية في المدارس. ورغم أنها أُعيدت إلا أنَّ كلمات وزير التربية آنذاك التي تعبّر عن ازدرائه لغومبروفيتش قريبة جدا من منطق الوزير فاشتشيكوفسكي حين قال عن غومبروفيتش إنّه: „في سنة ١٩٣٩ تهرّب من الخدمة العسكرية وفرّ إلى الأرجنتين للبحث عن المغامرات".

عمّا يتحدث غومبروفيتش؟ الرواي أديب يزيد عن الثلاثين من العمر قليلا اسمه يوجو (Juzio). في يوم من الأيام يستيقظ صباحا ليجد نفسه قد عاد مراهقا. معلِّمُه عجوز من الطراز القديم غير واثق من نفسه، متعجرف ومعقد كما سنرى. يفرض المعلم على البطل أنْ يلعب دور التلميذ. ورغم أنّ يوجو يعي بأنه رجل راشد، إلا أنه لا يستطيع أن يقاوم الضغوط الاجتماعية: فعندما يرى محيطُه فيه تلميذا، فهو لا يكتفي بالتصرّف كتلميذ، بل يرى نفسه تلميذا حقا.

في الفصل المحوري من هذه الرواية يكتب غومبروفيتش عن "وطنيّة السيقان". يقود المعلمُ يوجو إلى نُزلٍ حيث سيسكن، وهناك تستقبلهما ابنة صاحب النزل لغياب والديها: وتبدأ لعبة صامتة بين الأبطال: المعلم العجوز يسترق النظر ليتروّى من مفاتن ساقيّ البنت ملحّا على يوجو (وربما يتصنّع أنّه يلح عليه) أن يقوم بذلك. لكنّ يوجو يشعر بأنه لو خضع لإلحاح المعلم (أو لمفاتن ساقي البنت) فإنه لن يستطيع أن يفلت من دور المراهق.

وتبلغ جهود المعلم مستوى هزليّا عاليا. غزل الشباب (أو الشيوخ؟) يخلق شيئا من روابط وطنية هي "وطنية السيقان". وهكذا وعلى عكس كل محاولات المعلم فقد اتّضح أنّ ما جذب يوجو والمعلم نفسه لم يكونوا أبطال التاريخ العظيم بل "اللانضوج" الذي تغنَّجته ورمزت إليه هذه البنت. إنّ "وطنيّة السيقان" ليست تاريخية وهي عابرة للشعوب فكلّنا بشر ولنا جميعا سيقان.

ويسير مؤلف «فيرديدوركى» قُدما ويتذكّر أن الكبار وليس الصغار فقط يُغرقون القطط ويعذّبون الطيور. لماذا؟ كي يموّهوا لنضوجهم وتعددية أبعاد العالم التي لا تريد أن تخضع للأحادية وللتوجّهات التي تؤدلج النضوج المزعوم. ويتوجه غومبروفيتش بسؤال بلاغي: „أليس لهذا كَدَّ تروتسكي و توركيمادا؟ ما ردُّ وزيرنا على ذلك؟"

شبّان ورجال

ميرون بياوشيفسكي من الشعراء والكتّاب المهمين في القرن العشرين. بقي طوال الحرب الثانية في بولندا. وصار كتابه «ذكريات من انتفاضة وارسو» مقررا إجباريا في المدارس البولندية.

من باب التذكير: اندلعت انتفاضة وارسو في الأول من آب ١٩٤٤ واستمرت لأكثر من شهرين، وكانت محاولة لتحرير العاصمة من الاحتلال الهتلري. وقد ظنّت حركة المقاومة البولندية أنها تستطيع هزيمة العدو المتراجع. أثناءها كان الجيش الأحمر على أبواب العاصمة. وقد انتهت الانتفاضة بهزيمة عسكرية وسياسية ودفعت ثمنا باهظا، فقد سقط قرابة ربع مليون من الناس ودُمّرت أجزاء كبيرة من وارسو وأُسِر الآلاف ومن بينهم بياوشيفسكي. هل كان هذا الكاتب المتوفّى والذي كان أثناء الانتفاضة يبلغ ٢٢ سنة يتصور أن أجزاء من «الذكريات» ستنطبق تماما على المداولات البولندية الجارية الآن حول اللاجئين.

منذ الأيام الأولى للانتفاضة بدأ الألمان يعزلون أحياء المدينة عن بعضها لينفردوا بها مما صعّب ظروف حياة المدنيين، من نقص في الماء والغذاء وانعدام لمواد تضميد الجرحى. ولم يكن اللجوء للأقبية يبشّر بالأمل تحت قصف مكثّف من الأرض والجو، بالإضافة إلى أن الألمان كانوا حين يحتلون مبنى من المباني يقومون بقتل ساكنيه فورا.

في ظروف كهذه حاول البعض أن ينجو بنفسه بالهرب عبر مجاري الصرف الصحي نحو مناطق آمنة من المدينة. بياوشيفسكي يتذكر: „كانت الفتحة المؤدية للمجاري القريبة مراقَبَة تماما من قبلنا (...) مُحاطة بنا، بالناس، وبخاصة بالرجال، فنحن كنّا أشدّ خوفا من الجميع، وخاصّة أننا كنّا شُبانا، لأنّهم كانوا "يطخّون" الشباب أولا (...) فكان لا بدّ أنْ نُطلق ساقينا للريح بأي شكل! ستبقى النساء لوحدهن، ولكنهن دائما في وضع أسهل".

يصف بياوشيفسكي حياة المدنيين الحربية بأنها فوضى الرعب اليومي ومحاولات خَطِرة ليتمكنوا، هم وأقرباؤهم من سدّ الحاجات الحياتية الأساسية: الحصول على الهواء الذي كان مفقودا بين البيوت في تلك الأيام والليالي المحرقة بسبب القنابل. الحصول على الماء والطعام فمن أين لهم ذلك وهم في مدينة مقطوعة عن العالم. كذلك الحصول على مخبأ آمن ولو لعدة ليال. ومع ذلك فقد سطّرت انتفاضة وارسو صفحات من التاريخ العظيم. غالبا ما تستشهد جماعة الوزير بها كنموذج للوطنية.

حين شارك بياوشيفسكي بالانتفاضة كان يدرك أنه أصبح جزء من هذا التاريخ العظيم، ولكن هل أسعفه هذا بشيء؟ „ لم يكن هذا الإدراك شيئا رائعا. (...) لم يَحْمنا ملوكُنا، كما نحن لم نحم ملوكنا، وما تركوه لنا، لم نحم أيّ شيء .. أيّ شيء" هكذا يَعلن معلّقا على مأساة هذه المدينَة. تُرى هل نسي الوزير فاشتشيكوفسكي ذلك؟

كي لا يستغبينا أحد

حين جلست لكتابة هذا المقال شعرت بالنفور، فقد صادف أنْ عُدتُ من رحلة استغرقت عدة أسابيع إلى تايلاند. ورغم أنّ آسيا الجنوبية ـ الشرقية لها مشاكلها فقد شعرت منذ اليوم الأول أنني أتنفّس بارتياح. تركت ورائي العالم الأوروبي والمتوسطي الخانقين. نسيتُ تقاطيع وجوه السياسيين البولنديين وغير البولنديين الحادة، التي تدعو إلى كفاح وهمي للدفاع عن حدود وهوية مُخْتَلَقة.

في طريق عودتي من بانكوك إلى وارسو شاهدتُ فيلما يروي قصة ملاكم يتعلّم كيف يرفع كتفه اليسرى ويثني يده في الكوع ليحمي رأسه وفي ذات الوقت يكون مستعدّا لتوجيه ضربة صائبة بقبضته اليمنى. حين جلست لأكتب هذا المقال كان جسمي يتصرّف كذاك الملاكم. كتفان مشدودتان ووضعية جاهزة لهجوم معاكس، كأني رجعتُ إلى محيط عدائي يحاول أن يجعل مني ابنا بارّا للشعب ووريثا للتاريخ العظيم مستعدا للكفاح.

قبل أن أبدأ كان علي أن أزيل التوتر من داخلي. كنتُ أستطيع أن أورد إحصائيات بأنّ أكثر من ٤٠٪ من البولنديين يدعم إيواء اللاجئين علما أن عددهم تناقص في السنة الأخيرة. كنتُ أستطيع أن أكتب عن الكنيسة الكاثوليكية في بولندا والتي أبدت في مناسبات عدّة أنها من دعاة تقديم المساعدة للاجئين. لكني أستطيع أن أكتب بأنّه لا يوجد حاليا أيّ حزب سياسيّ يشجّع على انفتاح بولندا على اللاجئين، وأنه بالإمكان التشهير علنا بهم بأقذع الطرق دون أن يُثير ذلك أحدا.

يمكنني أن أكتب بأن هذا من ثمار مرحلة تقسيم بولندا وموجات الهجرة البولندية التي رافقت ذلك أو هزائم انتفاضاتنا وغلطة الشيوعية أو حتى مرحلة ما بعد ١٩٨٩. كما يمكنني القول

عكس ذلك أي أنّ ذلك ليس ناجما عنها أبدا. وهنا بيت القصيد فقد شعرتُ طوال الوقت أن ذلك يزيد من اللّغو وصفِّ الكلام. ليس هكذا، لا يمكن أن يكون الحال كذلك: بقِي كفّي مشدودا واستحالت الكتابة.

فجأة! جاء الفرج، حين تذكّرت أغنية „عندما كنتُ فتى صغيرا" وكُتُبَ بياوشيفسكي غومبروفيتش، شعرت كيف تتراخى عضلاتي وتعود للشفتين ابتسامة الأصدقاء التايلانديين التي تُطمئن العالم. وظهرت تلك التي تسمع ما يمليه قلبها أي أمـي (عاد المواطن العالمي لمدينته الأم لعدة لحظات). فلتحيا الطوباوية الرزينة التي تطفق حيوية. المسألة بسيطة ـ فكرتُ ـ هناك من يعبث في الماتريكسات أو كما يقول غومبروفيتش أن هناك من يصبُّنا في قوالب لا تعد تجربة تاريخية للعائلات البولندية ولا تتجاوب مع بُنيتنا الثقافية وبدلا من «وطنية السيقان» يحاولون أن يقدموا مفهوما وهميا للأمة على أنها شعب محبوس في حدود.

لست ساذجا وأُدرك مخاطر أن ينجح الوزير فاشيتشيكوفسكي وأمثاله في العبث واللغو. لكن لن يكون لك هذا!!

كتبتُ هـذه الكلمات وأنـا أبتسم متحديا سحناتهم الحادة ولغوهم، لكني أُعلن: لن يشوّش أحدٌ عقولنا. هذا لن يكون أبدا.

ستانيسواف ستراسبورغر إعلامي وكاتب يكتب باللغة البولندية. في سنة ٢٠١٥ نشر كتابه «هوس لبنان» في وارسو وفي عام ٢٠١٦ نُشر بالألمانية في زوريخ، أما روايته «بائع الحكايات» فصدرت باللغة العربية في بيروت سنة ٢٠١٤. يدير مشاريع في المجال الفني ومجال الذاكرة التاريخية في نقاط التّماسّ بين بولندا وألمانيا ولبنان.

ترجمة: جورج يعقوب

■ إن استعداد الألمان لاستقبال أعداد كبيرة من اللاجئين له علاقة بتاريخهم أيضا. فكثير من الألمان كانوا هُجروا من ديارهم عقب نهاية الحرب العالمية. بيد أنهم ظلوا لمدة طويلة ينفرون من مواجهة هذا الجزء من ماضيهم. في هذه المقالة تروي باربارا ليمان التاريخ المأساوي لعائلتها.

كلنا لاجئون

كيف تعامل الألمان مع تهجيرهم؟

باربارا ليمان BARBARA LEHMANN

منذ طفولتي، ترافقني وتسيطر على أفكاري صور عن لاجئين تدفقوا على مدننا كالشلال. وقد أعادت الجموع الجديدة من اللاجئين، الذين يتدفقون على ألمانيا حاليا، إلى ذاكرتي ذلك الكابوس الذي أفزعني دائماً. فكما هي الحال بالنسبة للكثيرين من الألمان، تسبب لي هذه الجموع الخوف أيضا. إني أشعر بخطر يتهددني، إذ أخشى أن يستحوذوا على ما تبقى لدي وأن يفلحوا في تهجيري في نهاية المطاف.

ولكن ما هي الأرضية التي ترعرعت عليها هذه المخاوف؟ لماذا أفشت أسرار الكثير من المناحي الانفعالية الناشئة عن تحديات باتت ترهق كاهلنا على خلفية تدفق اللاجئين؟ والأمر الجديد بالملاحظة، هو أن الأجانب، ما كان لهم حضور في المناطق الريفية من ألمانيا التي أنحدر، أنا منها. فنحن أنفسنا كنا الغرباء هناك، أعني أهلي الذين جاؤوا من الشرق وظلوا لاجئين طيلة حياتهم.

صورة من شرق أوكرانيا.
Photo: Barbara Lehmann

شذرات من حكايات

آنذاك، أعني في ذلك الزمن المنصرم. لا أزال أتذكر مصنع أبي، أتذكر، بنحو باهت، مصنعاً امتلكته العائلة في ألمانيا الشرقية تم تأميمه في نهاية المطاف. كما أتذكر أن أبي وجدي قد شيدا المصنع مرة ثانية، ولكن هذه المرة في ألمانيا الغربية، وأن هذا المصنع أعلن الإفلاس في يوم من الأيام. لا أزال أتذكر، عالم عائلة برجوازية، لم يحفظ التاريخ لنا منها سوى شذرات لا غير، شذرات نعثر عليها، فيما تبقى لدينا من صور فوتوغرافية ومجموعة متواضعة من أثاث أصاب التلف معظمه.

لكني أتذكر مقتطفات من قصص مختلفة. أتذكر كيف انهالت القنابل على دريسدن، ومذابح اليهود، ويهوداً كانوا يمثلون الشركة، التي أنقذها جدي من الإفلاس بفضل الجهود، التي دأب على بذلها بصمت وهدوء. بيد أن هذه القصص ظلت مهلهلة، ظلت نتفاً لا غير. ظلت هكذا، ليس فقط لأن الجد ما كان قادراً على الإفصاح بنحو مترابط، عما كان يريد سرده، بل أيضاً، لأن كلماته قليلاً ما كانت تحظى بالتأييد. فالمطلوب هو اصطناع عالم ينعم بالسلام ويجمع، ولو لبضعة سويعات شمل أسرة تلتقي أيام الآحاد لتحتسي القهوة سوية.



وهكذا، فقد جرت العادة على قطع دابر كل موضوع، يمكن أن يؤدي إلى خصام وعداوات وأحزان. في هذا العالم، الذي عاش في رحابه صناعيون صادرت ألمانيا الشرقية مصانعهم، ولاجئون منعتهم عزة أنفسهم وأنفتهم من طلب مساعدات حكومية، فحاولوا بعرق جبينهم، البدء بإنشاء مشروع جديد في ألمانيا الغربية، إنشاء مشروع يعلن الإفلاس بعد مرور فترة قصيرة على إنشائه. أجل في هذا العالم ما كان هناك مجالٌ، لا لسرد قصة مترابطة، ولا وقتٌ للتعبير عن المشاعر التي تراكمت على خلفية عمليات التأميم والفرار وتهجير العائلة برمتها. فالكفاح من أجل البقاء كان يكتم أنفاس كافة الحالات الانفعالية. لقد تكاتفوا، وبذلوا ـ في كثير من الأحيان ـ أقصى الجهود، على أمل أن يحققوا ما كانوا قد حققوه سابقاً. فقد شمرنا لها عن سواعدنا، وواصلنا بذل أقصى جهد ممكن.

أول لقاء يضم الأبوين

١٩٤٩. في هذا العام، التالي على انتهاء الحرب العالمية، كانت برلين مقسمة إلى مدينتين يعمهما الخراب. وتكفل عمٌ غني بجمع شمل الاثنين، اللذين سيصبحان أبي وأمي: جمع شمل أبي كارل ليمان، الذي عاد للتو، كسيرا عاجزا عن ممارسة الجنس، بعد أربع سنوات قضاها أسيرا في الاتحاد السوفيتي؛ لكنه، وبرغم هذا كله، كان قد توافر على هِمَّة ونَشاط وطموحات كبيرة. وبعدما ارتدى أفضل بدلة لديه، ووضع على رأسه قبعة كبيرة، التقى أمي البالغة من العمر ٢١ عاما، والتي كانت المالكة الوحيدة لشركة متوسطة الحجم اسمها Tabarz، تعمل في ولاية تورينغن (Thüringen). وتم اللقاء عند أحد الحلاقين في برلين. ودخل الرجل، الذي سيكون أبي فيما بعد، مشيا على أطراف أصابع قدميه، وقال، كما لو كان طفلا صغيرا: أنا كارلي. وهكذا تمت خطوبة الاثنين.

كان مطلوبا من كارل ليمان، الذي غدا يمتلك سيارة فارهة بكل ملحقاتها وأخذ يدرس الهندسة في كريفلد لكي يضطلع بقيادة المصنع أن يدير علاوة على ذلك مجموعة متاجر متخصصة ببيع النسيج، كان العم الغني، الذي ما كان له ابن يرثه، قد أسسها في المنطقة الحدودية بين ألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية.

وكانت خطة العم الغني، الذي سهل لقاء الوريثين الوحيدين، أعني أبي وأمي، تفترض أن ألمانيا ستستعيد وحدة ترابها الوطني، وأن نصف ألمانيا الشرقية سيكون ملكا لنا. إلا أن الحظ السعيد لم يدم طويلا. ففي عام ١٩٥٣، راجعت وزارة المالية في برلين، حسابات المصنع، وأصرت على الزعم، بلا وجه حق، بأن الشركة انتهكت القوانين الاقتصادية في ألمانيا، وراحت تهدد، بأن اللجنة الاقتصادية، ستفتش الشركة. وعلى خلفية هذه التهديدات، فرت أمي من برلين، مستخدمة السكة الحديدة، وبصحبتها حقيبةٌ، ملؤها منتجات فضية ووثائق مختلفة، كانت من جملة ما امتلكته العائلة.

وناجت أمي نفسها قائلة: „Wir schaffen das" يمكننا تحقيق ذلك!" نحن لن نُقهر.

لقد تصرف الجميع، كما لو أن ألمانيا، لم تشهد حربا مدمرة، وتظاهروا وكأن بمستطاعهم، إنقاذ الماضي البرجوازي، السابق على الحرب العالمية، من براثن النسيان، واستنساخه في ألمانيا الجديدة، في ألمانيا التي عرفها العالم، عقب انتهاء الحرب العالمية.

وبالاشتراك مع أبيه، أسس كارل ليمان، في السنوات التالية، مصنعا بمدينة دورستن، الواقعة في ولاية شمال الراين وستفاليا، كبديل عن مصنع الحقائب في ولاية سكسونيا، الذي استولت عليه الدولة بعد انتهاء الحرب مباشرة. بيد أن الشركة أعلنت إفلاسها عام ١٩٦٦.

عنف من خلف الواجهات البراقة

خلف الواجهات البراقة، التي رُممت من جديد، في سياق المعجزة الاقتصادية، التي شهدتها ألمانيا بعد الحرب، ظلت الصدمة النفسية التي خلفتها الحرب تعمل عملها، وكذا المخاوف المختلفة، والشعور بالذنب. ولا بد من الإشارة هاهنا، إلى أن وَالِدَيَّ، لم ينخرطا بملء إرادتهما، في صفوف النازيين، بل تفاديا لشرور النظام المستبد.

اضطرابات عصبية، دموع تنهمر، وتأكيدات تقول إن أباك فاشل، وأن علينا أن ننفصل عن بعضنا. لا أزال أتذكر مشاهد درامية، تجري أمام ناظري وأنا لا أزال طفلة، لا قدرة لها، على فهم كنه خلفيات هذا كله، وأسباب رغبة الوالدين بالانفصال عن بعضهما. كما لم يحاول وَالِدَيَّ، قط، شرح شيء من هذه الأمور. وأنَّى لهم شرح هذا، إذا كانوا هم أنفسهم تنقصهم الكلمات. إن القوى القاهرة، التي تسلطت عليهم، من محيط خارجي، انعكس مفعولها عليَّ بهيئة العنف، الذي مارسته الأم بحقي. وكان أبي يتخذ موقف المتفرج، غير المكثر بما يحدث من حوله. فعدوانيته كانت تنفس عن خاطرها، من خلال فورات غضب متكررة. كان الأب يبرأ نفسه من جريرة ما يحدث أمام ناظريه، بحجج تزعم أن: الذنب هو، دائما، ذنب الآخرين: هو ذنب الأبوين، ذنب الأشقاء، المشاركين في المصنع، وذنب الزبائن والمصارف. على أن الأَبَوين سلطا الغضب وخيبة الآمال على بعضهما البعض أيضا، بلا اعتبار إلى أنهما يدمران نفسهما بهذا الصنيع. وفي مساء يوم من الأيام، أخذتني أمي معها إلى فراش الزوجية، وفي صبيحة اليوم التالي، رأيتها مستلقية بجواري لا تحرك ساكنا. على ما يبدو، كان صراخي قد دق ناقوس الخطر عند الجيران. ولا أزال أتذكر الضِمادات وأدوات التضميد الأخرى، وسيارة الإسعاف، والممرضين، الذين أخرجوا والدتي من الدار محمولة على سرير نقال؛ عقب محاولة انتحار في مرآب السيارة، كنا، نحن الثلاثة، على وشك أن نذهب ضحيتها، لو لم يُضع لها حدٌ قبل فوات الأوان. ولم يتطرق أحد إلى هذا الموضوع قط.

يمكننا تحقيق ذلك! لقد انطوى هذا الاعتقاد على غرور أكيد، وإفراط في تقدير القوى والإمكانيات الذاتية.

التغلب على الماضي شكليا فقط

ولو كانت قد درات، فعلا، وبعيدا عن الجهود الرسمية، المبذولة للتغلب على الماضي، نقاشات عاطفية وسجالات موضوعية، مع تاريخنا، لكانت ألمانيا بلدا آخر. لكانت أكثر ألمانيا دفئا، وأشد تمسكا بتلابيب العقلانية.

على صعيد آخر، يحتم علينا الواجب، أن نفند كافة المزاعم القائلة، بأننا قد تغلبنا على فظائع الماضي، بصورة مثالية، وخلفناها وراءنا بلا رجعة. فالحقيقة تشهد على أن: الذنب الذي اقترفه النازيون، ومعهم آباؤنا وأجدادنا، لا يزال يثقل كاهلنا. إن هذه الحقيقة هي التي تحدد لنا، ردود أفعالنا، هي التي تحدد مواقفنا إزاء استقبال اللاجئين. وغني عن البيان، أننا، نحن الألمان، متطرفون فعلا ـ متطرفون سواء في نصرة الخير، أو في اقتراف الذنوب.

وفي سياق السجال الدائر حول تدفق اللاجئين على ألمانيا، أمست تواجهني ثانية، في اليوم الراهن، نفس ردود الفعل، وذات الأنماط، التي تعرفت عليها في طفولتي، أي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. أمست تواجهني، ثانية، بنفس العزيمة وبذات الحراك. وبالمقولة الزاعمة: „يمكننا تحقيق ذلك!" أيضا. وبشعار شق طريقك من غير اعتبار للعواقب! وبزعم أننا قادرون على تذليل المصاعب. وأن الأمور تتطور نحو الأفضل. أكثر فأكثر. وأن العالم بأجمعه مثال وقدوة حسنة. إن هذه الشعارات المحفزة على الصمود وإظهار الجَلَدَ ترن في الأذن كما لو كانت قهرية الطابع. فهي تكرر ذات الأنماط، التي تعالت في حقبة إعادة إعمار ألمانيا الاتحادية.

حراك مشابه

والأمر الذي يثير لدي الفزع، هو أن هذه الشعارات، لن تصل إلى سمع بني البشر في ألمانيا. وأن بني البشر في باقي ربوع المعمور، أيضا، قد لا يروا فيها، بنحو حتمي، القدوة الحسنة. لا بل على العكس، فهي تؤدي إلى تبلور مواقف رافضة، ليس لدى المواطنين الألمان فحسب، بل لدي الأمم الأخرى أيضا. ويزداد الموضوع تعقيدا، حين نأخذ بالاعتبار، أننا – نحن الألمان ـ نستذكر، حينما نواجه اللاجئين، ذلك الجزء من تاريخنا، الذي عجزنا، في عقلنا الباطن، أي في أعماق أعماق مشاعرنا، عن النظر إليه كجزء منا، وآثرنا، بالتالي رفضه، ومضينا قدما، في اتخاذ مواقف دفاعية ضده دائما وأبدا.

وغني عن البيان، أن جمهورا من الشعب، في ألمانيا، كان قد التف حول القائد، حول هتلر، الذي نادى بضرورة المحافظة على النقاء العرقي ودعا إلى الهيمنة على العالم. وعاهده على السير على هدى خطاه، حتى في الساعات، التي بان فيها خطل هذه الأيديولوجيا، التي ستسفر، عما قريب، عن أكبر هجرات للشعوب في التاريخ، أعني تهجير الألمان وشعوب أخرى من ديارهم. كما يحق للمرء القول، باننا قد دمرنا أنفسنا بأيدينا، وأننا كنا على وشك أن نقتل أنفسنا نحو لا رجعة منه. لقد مشينا في هذا الدرب، حتى النهاية المرة. ولكن، لم يا ترى؟ ولسبب عاطفي، نفسي، رفضنا طرح هذا السؤال على أنفسنا، وذلك لأننا لا نستطيع ـ ونحن ننظر إلى وجهنا المخيف ـ تحمل حقيقة الجواب.

مشاعر ذنب عائلية انتقلت بالوراثة من جيل إلى جيل

في تلك الحقبة من الزمن، في الزمن التالي على انتهاء الحرب: وفي الدار الملك ذات حوض السباحة الخاص، نعم في هذه الدار، التي شيدها أبي وأمي بمساعدة الأموال الحكومية المخصصة لتعويض المواطنين عن الأضرار، التي لحقت بهم جراء استيلاء حكومة ألمانيا الشرقية على ممتلكاتهم بنحو تعسفي، ومن خلال قروض حصلا عليها من المصارف، أطلت أم جدتي آديلا آدلوف، صاحبة الأنف المعقوف، من دهليز الدار، لتلقي على ذريتها، نظرة صارمة، لا تخلو من كبرياء سيدة أسست شركة أمي، في مدينة Tabarz، بمنوال واحد فقط. وكانت أم جدتي قد نوهت، لحفيدتها، لأمي في صباها، أنه كان من الأفضل لو أنها، أعني أمي، لم تر نور الدنيا أصلا، وذلك لأنها ما كانت تُريد للشركة، أن تتوزع ملكيتها، بين ورثة كُثر، بل كانت تحبذ، أن يرثها، واحدُ فقط، من الأخوة الأكبر سنا. علما أن الشعار، الذي كثيرا ما رددته، كان يفيد بأن: البنات اللواتي صوتهن عواءٌ، وأحاديثهن صَفيرٌ، يجب أن تُدق أعناقهن، في الوقت المناسب.

بيد أن الأخ فضل أن يكون خفير غابات. وحينما سأل الأب آدالبيرت والدتي، وهي لا تزال صبية، في الرابعة عشر من العمر، عما إذا كان لديها الاستعداد لأن تخلفه في ملكية الشركة، سخرت أمي منه، ومن تجاهله أنها ابنة مدللة من أصل مرموق. وبعد فترة وجيزة من وفاة زوجته، انتقل آدالبيرت آدولف، أيضا، إلى العالم الآخر.

وظلت والدتي تشعر بالذل طيلة حياتها. فقد ساورها الإحساس، بأنها لا تفي بالآمال، التي عقدها عليها السالفون.

وهذا الموضوع، أيضا، تم تجاهله بالكامل، فلم يتطرق إليه أي واحد من أفراد العائلة.

وما هي حاجتنا لهذه الموضوعات. فنحن ننجز وظائفنا على خير وجه. إننا عائلة لا تشوبها شائبة، إننا عائلة من العوائل الألمانية، التي يحتذى بها.

متاريس جديدة: أوكرانيا

قبل فترة وجيزة، كنت في زيارة إلى الإقليم الشرقي من أوكرانيا. وتضمنت الرحلة، زيارة مدن الدمار الشامل، مدن الهجرة وعمليات

التهجير. وكنت قد تتبعت، بنحو معكوس، الطريق، الذي يسلكه المهاجرون لأصل إلى تلك المدن، التي كانت ديارهم الحانية، من قبل أن يخلفوها ورائهم مكرهين. وكافحت، وأنا أجتاز، المرة تلو الأخرى، نقاط التفتيش المختلفة، وطوابير السيارات والبشر المحتشدين عند كل نقطة تفتيش. وقضيت العديد من الأيام، في مدينة دونيتسك، أي في منطقة الانفصاليين، في المنطقة الخاضعة لسيطرة حكومة عسكرية، تفرض إرادتها، على المواطنين المرهوبين، بكل أساليب القهر. وكنت أتردد بين جانبي الجبهة. مدفوعة بحب التعرف على أسباب ممارسة العنف، وعلى ماهية الوهاد، التي تُسفر عن هذه السلوكيات الوحشية، وعما تخلفه في جنان المواطنين المدنيين من ندوب وآثار. كما سعيت، لمعرفة معنى النزوح، وعما يترتب عليه، بالنسبة لنا أيضا. أعني بالنسبة لنا، نحنُ الألمانَ، وذلك لأننا نستقبل، حاليا، ويوما بعد آخر، حشودا غفيرة من اللاجئين. يأتون إلينا حطاما، ذاهلين، بلا ماض يستحق أن يستعيدوا ذكرياته. هل نحن مستعدون لتقديم العون لهم ومد يد المساعدة؟ إن هذا هو السؤال، الذي فكرت به بلا انقطاع. وهل نحن قادرون، فعلا، على مساعدتهم؟

في دونيتسك، في الإقليم الأوكراني، الذي عزله الانفصاليون عن وطنه الأم، التقيت سويتلانا؛ التي ما عادت ترى مستقبلا واعدا، لا لنفسها ولا لعائلتها. وبات زوجها يعمل في المدينة الأوكرانية كونستانينوفكا، حيث استأجرت العائلة، شقة صغيرة، أمست بالنسبة لهم، ملاذهم الأخيرة. وكيفما كانت الحال، فإنها رجعت، لآخر مرة، إلى دونيتسك، للاطمئنان على سلامة دارهم ولقطع التيار الكهربائي ولتعليق ضخ الماء إلى الدار. فسويتلانا كانت تعلم جيدا، أنها لن تعود إلى دارها هذه أبدا

وسويتلانا: امرأة في منتصف العمر، كانت دونيتسك مسقط رأسها، ولم تعر السياسة أي اهتمام طيلة حياتها. وهي أم، خصصت حياتها، لمنزلها المتواضع، ولعائلتها فقط. ولم يكن مسكنها في وضع متميز قط، فهو يتكون من طابق واحد، جرى بناؤه في أربعينات القرين العشرين، واشتراه الزوجان بمبلغ مناسب، وأدخلا عليه الكثير من الترميمات، خلال الخمسة عشر عاما المنصرمة، ليغدو، شيئا فشيئا، سكنا يوفر شيئا من أسباب الراحة، ويلبي حاجات العائلة.

وكثيرا ما تبكي سويتلانا، وتقول بنبرة صادقة، في سابق الزمن، كنا، نحن سكان دونيتسك، موحدي الصفوف. أما الآن، فثمة جدار يفصل بينها وبين جارتها؛ جدار يفصل الذين فروا عن أولئك الذي فضلوا البقاء في المدينة، فعاشوا قصفها وشاهدوا الكثير من الضحايا بين قتيل وجريح، وتعرضوا إلى شتى ضروب الإرهاب.

وبلا مقدمات كثيرة، فهمت، في الحال، ما عانته أمي في حقبة شبابها، حين خلفت وراءها منزلها ومصنعها وحملت حقيبة واحدة، كما لو كانت في طريقها لقضاء رحلة قصيرة. وقتذاك. نعم وقتذاك، أَحِطت علما بأسباب الحزن والأسى وبأسباب الصمت.

لقد فهمت، وقتذاك، ما تعنيه الهجرة. في هذه اللحظات، فهمت، أيضا، أسباب عجز أبي وأمي عن نسيان الماضي وجراحه.

حالة الوطن الهائئة ذهبت مع الريح على خلفية الحقيقة الماثلة

كان أبي وأمي مجذوبين بحياتهم السابقة، فهم رفعوا هذه الحياة إلى مصاف سامية لا يُعلى عليها، من غير أن ينسوا ضرورة حشرها في الرف، لتكون نسيا منسيا. وكانت إعادة توحيد شطري ألمانيا، فرصة سانحة، حفزتهم لأن يزوروا موطنهم السابق. لقد هرولوا إلى وطنهم القديم، بآمال وتوقعات عظيمة. إلا أن ما رأوه خيب آمالهم وتوقعاتهم، فالواقع الذي عرفوه، اختفى اختفاء جليد اصطناعي تعرض لأشعة شمس دافئة.

وبعد صراع بيروقراطي دام ثلاث سنوات، مع لجنة الوصاية على مصانع الدولة في ألمانيا الشرقية، نجحت أمي في استعادة مسكنها القديم منهارا يكاد أن يكون بلا قيمة تذكر، ومصنعها المتوقف عن العمل. ومن خلال الاستطلاع الأول للموقع، البالغة مساحته ٢٠ ألف متر مربع، تبين لها بجلاء، أنها استعادت أرضا خراب. فالتخلص من أنقاض العنابر وتسوية المستحقات النقدية، بمفرده، كان سيكلف ١,٢ مليون. وهكذا، وفي نهاية المطاف، لم يبق لدى أمي، أي خيار آخر، غير تصفية المصنع، والتخلص منه كلية. كما هُدِمت بناية المرجل وردهة الخراطيم والبرج الصغير. وعلى خلفية هذه الوقائع، حررت أمي رسالة، تقول فيها بحزن شديد: لم يبق من المصنع سوى قطعة أرض غريبة عني كل الغربة. وكيفما كانت الحال، لقد مرت عملية بيع العنابر المتبقية، كأرض فضاء تقع في المنطقة الصناعية، بمهل كبير وتردد شديد، لا سيما أن حالة أصحاب المهن اليدوية، في المدينة، كانت، من الناحية المالية، في وضع يُرثى له.

على صعيد آخر، وبما أن أبي كان رجل أعمال يعمل لحسابه الخاص، لذا فإن لم يدفع لصندوق التقاعد الحكومي ولا حتى سنتا واحدا. من هنا، فإنه حصل على راتب تقاعدي متواضع جدا. علما أنه كان قد خسر فرصة عمله في وقت مبكر، وأنفق المال، الذي حصل عليه من الدار، التي كان قد باعها منذ أمد طويل. وأن الديون كانت تزداد تراكما. لقد أفلس أبي وأمي حقا.

وانتهت آخر مكالمة هاتفية مع أمي بقطيعة لا رجعة منها. فقد قالت لي، بصريح العبارة، إننا، أعني أباك وأنا، عزمنا على الانتحار، وذلك من أجل أن يبقى شيء تستطيعين وراثته. إن حياتي ضاعت سدى.

لقد شعرت بأني أتعرض لخطر يتهددني، تماما كما كنت أتعرض، في طفولتي للضرب، من هنا لا غرو أن اقطع علاقتي بلا رجعة.

وبعد نصف عام، اتصل بي هاتفيا، أحد عناصر البوليس، في مدينة كولونيا، ليخبرني أن أمي وأبي قد انتحروا سوية، في حوض حمام، أحد فنادق كولونيا.

شخصيات وجيهة دمرتها الحرب

ومن خلال رحلاتي الكثيرة، إلى الأقاليم المأزومة على وجه الخصوص، التي كانت تتبع فيما مضى من الزمن، الاتحاد السوفيتي سابقا، صرت أفهم أني لست الإنسان الوحيد، الذي طوى جناحيه، على آلام ومشاعر بالذنب، لم أستطع التغلب عليها إلى الآن.

إن الحرب، التي عشت ويلاتها خلال رحلتي إلى أوكرانيا مؤخرا، لا تبني جدارا من الصمت بين أولئك، الذين فروا من ديارهم وأولئك الذين واصلوا الإقامة في مدنهم، فحسب، بل هي ترسم، أيضا، حدا فاصلا بين أفراد العسكر من ناحية، والمدنيين من ناحية ثانية. وعلى ما أرى، فإن الإنسان، الذي عايش حربا، لن يتمكن، نفسيا على أدنى تقدير، من العودة إلى الحياة المدنية أبدا، لن يتمكن من ذلك، حتى وإن بذل أقصى جهد، نعم لن يفلح في العودة إلى الحياة المدنية بصرف النظر من مثابرته والشعارات الكثيرة، التي تحرضه على الصمود وتطالبه التسلح بالإرادة القوية.

والتقيت هاهنا رجل أعمال شيشاني اسمه قازبيك، يشارك الأوكرانيين في حربهم ضد الروس، أعتقادا منه، أن هذه المشاركة ربما تسفر مستقبلا عن تصفية نظام رمضان قديروف، ديكتاتور الشيشان، المدعوم من بوتين. لقد رأيته يستعيد أمجاد الكفاح القديم، الذي خاضه أجداده، برغم أنه جاء، في شبابه، إلى أوكرانيا، فرارا من الحروب الشيشانية. وهكذا، وبعد مضي عشرين عاما، انخرط في أوار الحرب ثانية. انخرط في أوار حرب، بات يخوضها ضد أبيه وأخيه أيضا، اللذين لا يزالان يعيشان في الشيشان، ويناصران، بالتالي، قديروف. لقد لمست أن الحيرة تخيم، حقا وحقيقة، على هذه العائلة، الممزقة الأوصال، المضطربة الولاءات.

وحين أسأله عن عائلته، أرى في سماته، اضطرابا شديدا، وغضبا عارما، وروحا عدوانية لا رحمة فيها. لقد ظل أسير أنماط وتصورات ـ جماعية ووطنية ـ، لا قدرة له على التخلص منها ونفض يده منها. إن محدثي، أعني رجل الأعمال الشيشاني الناجح ـ الذي بات، الآن، منخرطا في نزاع عسكري ضد الروس، وصار يشعر، على خلفية انخراطه في هذه الحرب، بنشوة كبيرة وبسعادة غامرة، هي، على ما أرى، أوهام لا سند واقعي يدعمها ـ نعم إن رجل الأعمال هذا، صار قاب قوس، من تقويض كل ما شيده حتى الآن. إنه صار ينتمي إلى زمرة الضالين سبل الحياة المدنية.

لقد رأيت أبي، رأيته ثانية، رأيته هو وأخاه الأكبر. ورأيت نزاعهما. ولاحظت حرب الأشقاء بينهما.

وفي وقت مبكر، حين كان لا يزال فتى في التاسع عشر من العمر، وملازم ثان في سلاح الدبابات، صدر الأمر له، بالتوجه إلى الجبهة الروسية. وتعرض أبي في هاهنا، إلى إصابات عديدة. وقضى، من ثم، أربع سنوات، أسيرا في المعسكرات الروسية. وغني عن البيان أن سنوات الأسر هذه قد حطمت شبابه بالكامل. وحينما عاد إلى وطنه، ما عادت دياره الشرقية، هي الديار، التي عرفها سابقا. وحاول، من بعدُ، جاهدا، التكيف، بكل السبل، مع النظام الرأسمالي السائد في العالم الغربي. ولكن، أَنَّى له أن يتكيف مع هذا النظام؟ فهو بات الآن رجلا بلا خصال. بلا شيم، تساعده على التكيف مع النظام الرأسمالي. لقد غُسل مخه مرات عديدة، لقد عجنوه مرة تلو أخرى كما يعجن الخبازون عجينهم، لقد أعادوا تشكيل فكره، المرة تلو الأخرى، وسقوه أيديولوجياتهم ـ في بادئ الأمر الأيديولوجيا النازية، ومن ثم الشيوعية وأخيرا الرأسمالية؛ إن هذه المحن جعلت منه حطاما لا نفع فيه.

لقد سُلب، بكل معنى الكلمة، كافة مقوماته. وبات، على وقع هذه الممارسات التعسفية، غريبا عن ذاته، مسلوب الذات، فاقدا القدرة على الإفصاح عما يجول في خاطره، وناسيا ذكرياته. أو لنقل، وبنحو أكثر تعبيرا عن الحقيقية، أن الناس سرقوها منه، وجردوه منها، فبمنأى عن المناحي الأخلاقية ومسألة الطرف الذي يتحمل وزر ما حل به، الأمر البين، هو أن رواياته عن الحرب، والهجرة والتهجير، ظلت بلا صدى في ألمانيا الجديدة، في ألمانيا المولودة بعد الحرب.

كما رأيت شقيق أبي الأكبر سنا، والذي مال الحظ لجانبه، فلم يُساق إلى الحرب. إلا أنه،، وبصفته عضوا في الحزب الاشتراكي الديمقراطي، عَلِقَ بين الجبهات المتناحرة، وغدر به رفاقه في الغرب، وأخبروا سلطات ألمانيا الشرقية بحقيقته. وهكذا أبعد إلى سيبيريا، معتقلا في أحد معسكرات العمل الإلزامي والسخرة. وعاد إلى دياره في وقت متأخر نسبيا. وخلافا لأبي وأمي، فقد حالفه الحظ فعلا، فهو كان يقف في „الجانب الصحيح". ومنحته هذه الحقيقة، الاعتداد بالنفس، واعتراف شقيقه الأصغر سنا على أدنى تقدير، بأنه صاحب «عقيدة» سياسية.

واتسمت العلاقة بين الشقيقين بالنفور. فبينهما سادت برودة وعراقيل مختلفة. ونادرا ما كان الواحد منهما يتحدث إلى الآخر. أضف إلى هذا، أنهما كثيرا من كانا يتنازعان.

ومن جانب آخر وجه شقيق أبي الأصغر، وهو محام، تحذيرا لأبي من مخاطر الموافقة على استعادة ممتلكات أمي، التي استولت عليها الحكومة سابقا. بيد أن أبي اعتقد أن هذا التحذير يعكس حسد شقيقه على عودة الحق إلى نصابه.

وهكذا توقفت الاتصالات بينهما كلية.

أنا كاساندرا ـ العرافة نذيرة الشؤم والخراب

خلال رحلاتي في ربوع الأقاليم الشرقية من أوكرانيا، ساورني، من حين لآخر، الشعور بأني من طينة كاساندرا فأنا أيضا أتنبأ بوقائع ستنشر ظلاله، في القادم من الأيام، على أناس معينين، على لاجئين، يفرون إلى ألمانيا حاليا.

وفي صبيحة يوم من الأيام، التقيت في دونيتسك سويتلانا، التقيتها في مطبخ شقتها. باكية تذرف دموعا ساخنة. وتكدست

أمامها صور عائلية، ترك عليها الزمان بصماته. وانتزعت سويتلانا هذه الصور من ألبوم، تخفيفا للوزن، وتسهيلا لنقلها. ولاحظت لأول مرة، أن ثمة كتابات وتعليقات مختلفة، على ظهر هذه الصور. وهكذا، وفي هذا الحين، أعني في هذه الحقبة من حقب التهجير، أدركتْ عن كثب، مقدار جهلها بتفاصيل سيرة عائلتها. جهلها بحقيقة ما عانته والدتها وجدتها، جهلها باضطهاد عائلتها وتهجيرها، وانتقالها من أوديسا إلى دونيتسك على خلفية وعد بمستقبل أفضل. هذا وغيره حصل وقتذاك. أما الآن، فإنها تحاول، تنسيق قطع الفسيفساء (الموزاييك) وإعادة تركيبها، للوقوف على الأسباب، التي أسفرت عما حدث، والتي تسببت في تكرار هذه المحن، مرة تلو أخرى.

خفف من غلواء انخراطك في أتون الصراع، إن هذه هي النصيحة، التي أشرت بها على قازبيك، رجل الأعمال الشيشاني، فهذه الحروب، هي حروب أسلافك، وليست حروبك أنت.

الأبناء يؤججون صراعات الآباء

قبل يوم واحد من انتحارهم، حرر أبواي وصية تفيد بأن شخصا غريبا هو وريثهم الأوحد. حينما علمت بمضمون هذه الوصية، شعرت بارتياح كبير، في الوهلة الأولى. فقد تأكد لي، الآن، أن سبب انتحارهم، لا علاقة له، بما زعمته أمي خلال آخر مكالماتها الهاتفية معي.

لقد مرت ثماني عشرة سنة على ذلك الحدث. ومع هذا، فإن السلطان، الذي يمارسه عليَّ أبواي المتوفيين، لا يزال بنفس القوة، لا بل ربما بقوة أشد من السلطان، الذي مارساه علي في حياتهم.

فلا يمر يوم واحد، من غير أن أفكر بهما، وأن أسأل نفسي، عما دار بخلدهم في الساعات الأخيرة من حياتهم؟

وربما كان السبب يكمن في أنهما: كانا، في نهاية الأمر، مطاردين، ينتابهما الفزع، وتلاحقهما بضعة كلمات جنونية، تتكرر على سمعهم بلا انقطاع، وتضرب على يافوخهما مرددة: عوز مالي، مراجعة مكتب الرعاية الاجتماعية بات احتمال، ما عاد مجال لردعه، وشيخوخة ما عادت تسمح بالشروع بعمل جديد. وعلى خلفية هذا كله، يتبين بجلاء أن القرار كان قد اُتخذ منذ أسابيع كثيرة، وأن تاريخه قد بات معلوما، وأن العدد التنازلي كان قد بدأ فعلا. المهم عدم التفكير بالأمر كثيرا. المهم هو تخطيط الأمور بعناية ووضع الخطط لكل الاحتمالات.

لقد ضاع العمر سدى، وبالتالي، فإن الواجب يفترض، على أدنى تقدير، توديع هذا العالم بنحو غاية في التنظيم.

ومن نافلة القول، الإشارة إلى أنه كان يتعين إنجاز أمور كثيرة: استدعاء سمسار يرعى عملية المزاد العلني، طلب إنهاء عقد استئجار الشقة، إعادة سيارة الأودي Audi إلى التاجر، الذي قام بتأجيرها لهما. فلسان حالهم كان يردد: إننا نعتزم القيام برحلة طويلة، وأن التقيد بمتطلبات النظام أمر واجب. وانسجاما مع هذا المنظور، جرى تنظيف الشقة، كما لو كان المراد هو تمكين الأشياء، التي اعتز بها المرء طيلة حياته، من أن تسجل، براقة لماعة، أخر انتصاراتها على الأحياء.

اليوم الأخير

وكما جرت العادة، في صبيحة كل يوم: الإفطار في الفراش سوية، تصفح الجريدة اليومية، وارتداء الملابس. كل الأمور تحت سيطرتنا. قالت الأم وألقت نظرة خاطفة في المرآة: الشعر الأشيب ليس مصففا بالنحو المعتاد هذا اليوم، بيد أن هذا ليس بالأمر المهم الآن. إنها هي القوة الدافعة، فهي تعطي الأوامر، والأب ينفذ طائعا، كما اعتاد خلال عِشْرَة زوجية، دامت ٤٤ سنة. وفي رسالتها التوديعية، التي حررتها لكاتبة عدل، سجلت أمي أخر تعليماتها: الرجاء دفن وعاء الرماد في مقبرة العائلة الكائنة في ولاية تورينغن الألمانية، وضرورة اتخاذ اللازم لأن يحضر القسيس فقط مراسيم الدفن.

وحررت، من ثم، نص الوصية. والملاحظ هو أن عبارة الانتحار لم ترد في أي وثيقة حررتها. فبحسب طلبها، ينبغي التعامل مع وفاتهم كحادثة مشؤومة ما كانت تؤخذ بالحسبان. وأعرب أبي عن موافقته على ما جاء في الوصية، من خلال ملاحظة دونها، على هامش الوصية، بخط شديد الاضطراب.

على صعيد أخر، كان يتعين التخلص من كل ما تبقى: ليس سجلات العناوين فقط، بل والمواد الغذائية وما فضل من الفطور ونفايات الحمام أيضا. فمظهر العائلة، المعتادة على الحياة البرجوازية، وعلى التمسك بالنظافة والنظام، يجب المحافظة عليه مهما كانت الحال، يجب المحافظة عليه حتى مقابل الغرباء، الذين سيدخلون الشقة، بعد انتقالهما إلى الدار الآخرة. من ناحية أخرى، وضع أبي في حقيبة بنية اللون أداة كهربائية لتجفيف الشعر وبعض أدوات الزينة، وراح يدس فوقها كيسا في داخله سِلْكٌ كهربائي مطوي باعتناء، ويتميز بأن أحد طرفيه عار من أية وسيلة عازلة. ودخلا صالة الفندق المزينة بأعمدة رخامية، ليسددا ٤٢٠ مارك ألماني مقدما عن استخدامهم غرفة من سريرين، وسلما إدارة الاستقبال كارت بريدي يحمل عنوان كاتبة العدل، ويتضمن جملة قصيرة مفادها: نحن في الغرفة رقم ٥٢٥. وعلقا على باب الغرفة، من ثم، اللوحة المكتوب عليها: الرجاء عدم الإزعاج. وربط الأب مجفف الشعر بالتيار الكهربائي لاختباره، وللتأكد من أنه يعمل بالنحو المطلوب. وسرعان ما امتلأ حوض الحمام، البني اللون، بالماء. فخلعا ملابسهما وجلسا متشبكين في الحوض عُرْيَانَ كلية. وتطلعا إلى بعضهما. وأرخيا قبضتاهما. ليحلقا بيسر فوق الغيوم. سائلين ربهما أن أن يكون عونا لهما في هذه الرحلة. وسقط المجفف من يديهما وهوى في ماء الحوض. وانطلقت ضربات التيار الكهربائي. وقُضِيَ الأمر. وانتهى كل شيء.

على كل واحد أن يَرْوِي للآخرين ما لديه من قصص وما عايش من أحداث

كثيرا ما ألاحظ أني أكرر ذات النماذج والتصرفات، التي شاهدتها عند أبي وأمي. بيد أني أختلف عنها في موضوع أساسي: فأنا أرفع النقاب عن كافة سجاياي، بما في ذلك نقاط ضعفي. إني أعتقد، أنه لا يجوز للمرء التستر على أي موضوع كان. إن من الأفضل أن يروي بعضنا بعضا ما لديه من قصص وما عايش من أحداث، حتى وأن سبب لنا التحدث عنها آلاما مبرحة، وحزنا شديدا. فبهذا النحو، وليس بنحو آخر، ننجح في النجاة من الأساليب والتصرفات، التي تتوارى في طيات قصصنا الكثيرة ومعايشاتنا التي لا تُعد.

إن الأزمات، الناشرة ظلالها حاليا على الشرق والجنوب، هي النتيجة، التي ترتبت على عدم التطرق إليها البتة، أثناء جلوسنا حول طاولة الطعام. فما هو دارج هنا، دارج هناك أيضا، وما نلاحظه في هذا الجانب من الحدود ونقاط التفتيش، نلاحظه في الجانب الآخر أيضا. فهنا وهناك يفتقر المرء إلى الثقة بأن سرد القصص والأحداث يسبغ مغزى على العلاقة بين الأجيال المختلفة. فسرد هذه القصص والأحداث ليس عاملا اجتماعيا ضروريا بالنسبة للعوائل، وبين الضحايا والجناة فحسب، بل هو أيضا، يمكن أن يشكل جسرا يربط بين الأمم المختلفة.

وأنَّى لنا، نحن الألمان، أن نمنح حاليا اللاجئين، موطنا يمنحهم الأمان في ألمانيا، نعم أنّى لنا هذا، إذا كنا، نحن أنفسنا، غرباء؟ إذا كنا، نحن أنفسنا، قد أمسينا بلا وطن؟

تبادل الثقة بين البعض والبعض الآخر

المزيد من الخصوصية، المزيد من الانفتاح، المزيد من الحميمية، إن كافة هذه الأمنيات ضروريات لا غنى عنها أبدا. وبرغم ما بذلنا، على مدى سبعين عاما، من جهود لـ „اجتثاث الماضي النازي"، فإننا لا نزال نراوح في مكاننا. وكيفما كانت الحال، إننا جميعا لاجئون. إننا، هنا في ألمانيا، ينبغي بنا أن نستقبل الأجانب برحابة صدر، ولكن بحدود إمكانياتنا، وبحسب الإمكانيات المتاحة لنا.

والمهم هو أن لا نطلب، لا منهم ولا من أنفسنا، ما هو فوق المطاق. نعم، ليس ثمة شك، في أن علينا أن نبذل ما نستطيع.

كما علينا أن نتبادل معهم الأفكار والقصص. ولكن، وقبل هذا وذاك، يحتم علينا واجبنا، أن نعي بعمق قصصنا وقصص عوائلنا. فالقصص، التي لا تزال ترقد في باطن الصناديق، تستحق أن ترى النور ثانية. إن هذه القصص تستحق أن يرويها بعضنا للبضع الآخر، وان نأتمن عليها اللاجئين أيضا. عندئذ فقط، سنكون قادرين على الإصغاء لقصص الغرباء. فعندما نعرف، من أين جئنا، وأين نحن الآن، وماذا نريد أن نكون مستقبلا، نعم، فقط، عندما نعرف هذا كله، سنكون قادرين على منح الأجانب الملاذ الآمن. فما نحن وما هم بأمس الحاجة إليه: هو الموطن.

وغني عن البيان أنني لم أعثر في مدينة تابارتس، مسقط رأس أمي على وطن الأحلام، فقد بان لي أن أمي أعلت من قيمة المدينة بنحو مبالغ فيه كثيرا. فهذه المدينة، لا روح دافئة فيها البتة، من وجهة نظري، على أدنى.

فمدينة تابارتس ـ كانت ولا زالت حتى الآن، مدينة الصراعات والنزاعات. على صعيد آخر، محا سكان المدينة من ذاكرتهم تاريخ عائلتي. وعما قريب، سأطلب من القضاء أن ينظر في خلافي مع وارث أبي وأمي.

أما القبر، الذي دُفن فيه أبي وأمي، فإنه بات خرابا يرثى له، فقد غطاه اللبلاب. أضف إلى هذا، أن صخرة المرمر البنية اللون، التي اختارتها أمي في حياتها، كشاهد على القبر، لا تحمل سوى أسماء الأجداد فقط.

والآن، وبعد مضي ثماني عشرة سنة على انتحار الوالِدَيّن، فإني شرعت في جمع الشذرات والقصاصات، وبدأت أكتب رواية أتناول فيها سيرة حياة عائلتي. هذا وكلي أمل، أن تنتهي الحرب قريبا، وأن نتصالح ويسود الوفاق بيننا.

بربارا ليمان كاتبة ألمانية تقيم في برلين، وتنشر تحقيقات صحفية في جريدة «دي تسايت» (Die Zeit) الأسبوعية. كما تترجم مسرحيات وأعمالا نثرية مختلفة من الروسية. رواية: Eine Liebe in Zeiten des Krieges «حب في أزمنة الحرب» هي آخر أعمالها المنشورة.

ترجمة: عدنان عباس علي

■ حراس قساة يحرسون البوابات الخفية في أعماقنا.
وأينما رحلنا نقبع دائما في الوطن الشرق حيث يرسل الله الملاعين، عندما يمتلىء الجحيم على الطرف الآخر. لا تهاجر. هناك دائما من ينادي، لاتترك الوطن. لاتترك أرض الآباء، لا تذهب. المكان يتبعنا بإملاءاته، بأوامره الخفية.

الرعب الخلاق

في علاقة المهاجر بالمكان

بختيار علي BAKHTIAR ALI

عن الرعب

ثمة من زرع الذاكرة الفاشية في أعماقنا. نهاجر نحن وتبقى هي تـراوح مكانها متحدية. تتحدى الجسد، تتحدى أبعاد المكان، تتحدى الامتدادت الجغرافية والمسافات. تبقى الذاكرة حيث ولدت، تبقى في مخاوفها، في هواجسها المستبدة. عندما نعيش لفترة طويلة في ظل الاستبداد، لن تستطيع الذاكرة التخلص من رعبها، إنه رعب خلاق، بدون ذلك الرعب الباهر لن تستطيع الأمكنة الأخرى امتلاك هوياتها. وحده الرعب الدفين فينا قادر على إطلاق الأسماء، فهو المتكلم الحقيقي الوحيد داخلنا.



خيم لتأمين مستلزمات اللاجئين في مركز «لاغيزو» ببرلين.
Photo: Achim Wagner

هناك نوعان من الهجرة للهاربين من جحيم الأوطان المنكوبة. النوع الأول: أن نهاجر من أجل النسيان بالاتجاه المعاكس للذاكرة. لا لننقذ أرواحنا، بل لنغير من ماهيتنا، لنغير وجودنا من الجذور، لا لننقذ ما يجب إنقاذه من براثن الاستبداد، بل للقضاء على ما لم يستطيع الاستبداد القضاء عليه في ذواتنا المشلولة بالخوف. وتنتهي الهجرة في هذه الحالة بالاندماج الكامل، بالانصهار في المجتمعات الجديدة. أما النوع الثاني فهو أن نبتعد عن الوطن لنحمي الذاكرة من النسيان لنقضي ما تبقى لنا من عمر محتفين بالرعب، متلذذين به، مفاخرين بامتلاكه، ساكنين فيه. رعب نناديه كل يوم لنرى، لنسمي الأشياء، لنكشف الاختلاف بيننا وبين الطبيعة السوية للبشر.

ذلك الرعب هو ما يميزنا، نحن الذين عشنا تحت نير الديكتاتورية عن الآخرين. إنه الرعب المميز. رعب تحول مع الزمن إلى شكل من أشكال البصيرة الداخلية، لا يلون الأشياء بإرهاصاته فقط، بل يلوث المستقبل والآتي بعلاماته.

الهارب هو الذي لايستطيع الابتعاد كثيرا عن بيته المسكون بالمخاوف. ومن هذه المنطلق فقط نستطيع إعادة تفسير ما قاله جيل دولوز „المهاجر، كائن لا يتحرك من مكانه، و لا يصبح مهاجرا إلا عندما يقرر البقاء في عقر داره".

أرفض إلى حد ما مصطلح اللاجئ. ففي اللجوء توقف وسكون وارتخاء، أما الهروب فلا ينتهي مع الوصول إلى بر الأمان. اللجوء هو التوقف الاضطراري، حيث المكان لايسمح بالمضي

قدما، أما عملية الهروب فتستمر تحت الأقنعة بأشكال أخرى. لا يوجد قطعا مكان للهارب يخلو من الرعب. المسألة لا تتوقف عند حد المعادلة السياسية البسيطة، أي الهروب من سلطة الدولة أو الخروج من منطقة الخطر المباشر، بل الغاية الحقيقية وراء الهروب هي كسر دائرة الرعب. الهروب عملية أسطورية، تخيلية، تخضع لمنطق المتخيل وليس لمنطق التفكير العقلاني البحت. هناك اختلاف جذري بين ما نطلق عليها منطقة الخطر وبين دائرة الرعب. الهارب يستطيع مغادرة منطقة الخطر ولكن الخروج النهائي من دائرة الرعب يحتاج إلى آليات نفسية وسياسية أكثر تعقيدا. فالرعب مفهوم تخيلي نفسي لا ينتهي بمجرد اختفاء الخطر المباشر.

وأكثر اللحظات دراماتيكية في التطور الروحي للهارب، هي تلك اللحظات الانتقالية، حين يتحول الرعب من ظاهرة مرتبطة بحقيقة سياسية معينة إلى حقيقة وجودية. من ظاهرة محددة ومقننة في الزمان والمكان إلى وضع يعبر عن الشرط الوجودي الذي لا يمكن تجاوزه. أي عندما يصبح الافتراضي أكثر تأثيرا من الواقعي والمتخيل أكثر صلابة من الواقع.

السكون في منزلة الرعب لا يقود بالضرورة إلى عدم الحركة والاختفاء، المرعوب قادر على الاستمرار والسير بمساعدة مخيلته النشطة، إنه قادر على إدامة الرحلة عبر مستويات افتراضية متعددة، إلا أن تلك المستويات لا تتضمن عبور وتجاوز الخوف الحاكم في الحقل النفسي. قال إريش كِستنر ذات مرة „من لا يملك الخوف، لا يملك الخيال". تلك المقولة تكشف وإلى حد ما، عن نوعية التفاعلات الجارية داخل الفضاء الروحي للهارب. من غير الممكن فهم ما يجري في ذهنية المهاجرين، عبر قراءة العناصر التراثية المخزونة في اللاوعي فقط، أو من خلال إطلاق الأحكام الساذجة على الخلفية الدينية والإيدولوجية للمهاجر. الهارب يتخيل أكثر مما يفكر وينتج التصورات أكثر مما ينتج المفاهيم.

والتوهم بأن صورة الغرب تعادل وبشكل آلي صورة الفردوس الأرضي عند النازحين، تصور غير واقعي إطلاقا. فالرعب الساكن في الهارب يعبر عن حقائق أكثر تعقيدا. إن الصورة المعلنة عن «الغرب» كنوع من الفردوس الأرضي تظهر في مراحل معينة ضمن تجربة المنفى وتحت ضغط آليات محددة، كمحاولة لكبت الرغبة الجامحة في الهروب من كل الأمكنة وكمحاولة للجم إغواء الترحال الدائم.

فالغرب يكشف، ومنذ البداية للمهاجر حقيقة الضياع الأبدي للفردوس. وتلك الحقيقة المؤلمة تزيد من درجة الاغتراب بين الهارب والأمكنة الواقعية. إن التحفظ تجاه الغرب عند المهاجرين لا ينبع أساسا من منطلقات إيدولوجية أو دينية صرفة. فالانبهار بالغرب أو الكراهية المفرطة تجاهه، نابعان من علاقة إشكالية غير محلولة بين الذات والمكان.

عن اختفاء المكان

تحول الرعب من „الخوف من الظاهر" إلى „الخوف من الكامن"، هو العلامة الشاخصة في مسيرة الهارب. الهارب لايستطيع بعد وصوله إلى الغرب الخروج من دائرة الأخطار الافتراضية. لا أقصد الأخطار الطبيعية الممكنة التي تواجه البشر، بل الإحساس المباشر والمخيف بلانهائية رحلة الهروب. فكلما وصل الهارب إلى مكان ما، شعر بأن المكان ليس هو الهدف المقصود وأن هناك طرقا أخرى تنتظره. اللجوء ليس إلا مرحلة من مراحل الرحلة اللانهائية، محطة من المحطات لا أكثر. فالجسد المرتخي للمهاجر فوق سرير المعسكرات لن يتمتع بالراحة. هناك صوت ما يهمس دائما في أذنه، أن هناك مسافات أخرى يجب أن تقطع.

إن مشكلة الهارب هي بالأساس مع صورة المكان، بمعنى أن رؤيته للمكان تحدد طبيعة حالته الروحية. فكل هروب هو هروب من حقل سياسي معين، هروب من تقسيم معين داخل الحيز الطبيعي. المهاجر يحاول من خلال عملية الهروب إعادة المكان إلى وضعيته البدائية، إلى حقيقته كأرضية للحياة، أي إلى ما قبل انقسامه إلى دول وتجمعات.

لا يوجد في مخيلة الهارب شيء اسمه «الغرب الفردوسي». فحكاية الجنة التي تنتظر اللاجئ على الطرف الآخر، تصور غربي بحت لحكاية الهجرة. فالهارب يرنو إلى إعادة المكان لطبيعته غير السياسية، إلى بقعة لم تخضع بعد إلى عملية التقطيع. والابتعاد عن دائرة الموت هو القصد الأول فقط، إنها الخطوة الأولى، أما الغاية الأساسية فهي الابتعاد عن المكان المسيس نحو المكان الطبيعي، ليس من أجل البقاء بل من أجل الوصول إلى عالم مختلف. ويأمل المهاجر في أن يجد في الغرب مساحات غير مسيسة. إنه لايقصد الخروج من الجحيم نحو الجنة، بل يهاجر بحثا عن قطعة أرض لم تعد موجودة. الهروب عملية محكومة بالفشل، لكونه محاولة لإعادة تعريف الأرض كملكية عامة لكل الكائنات.

وعند الوصول إلى الغرب يقف الهارب عند مفترق طرق، فإما أن يستسلم لجبر المكان أو يستمر في رحلته الافتراضية عبر مستويات داخلية، أي على الصعيد الفكري التخيلي أو ضمن المكبوت النفسي، في اللاوعي، في ردود الفعل العشوائية على الظواهر اليومية.

والاستسلام لجبر المكان يعني الاستغناء عن المعنى الأخلاقي والبعد الفلسفي لعملية الهروب. هنا يحتاج الهارب إلى نص أسطوري فاعل وإلى حكاية مميزة كأسطورة «الغرب الجنة» كي يبرر استسلامه. فمسألة التطابق بين صورة الغرب و صورة المكان التخيلي، ليست ضمن المحركات الأساسية للهجرة. أسطورة «الغرب الجنة» تظهر فقط حين يحتاج المهاجر إلى مبرر أخلاقي وفكري لإنهاء رحلته و الإقرار بلامعقولية بحثه عن مكان غير مثقل بالعلامات السياسية.

إن ولادة مفهوم الفردوس الغربي في المجال النفسي للمهاجر، ليست إلا آلية من آليات الدفاع الذاتي لا علاقة لها بالإدراك والتجربة الحقيقية للمهاجر في الغرب. ولا علاقة لها بالماهية الحقيقية للغرب ككيان سياسي وحضاري. وللصورة الفردوسية وظيفة أساسية في مقاومة الرغبة الدفينة في الاستمرار، أي أنها نوع من أنواع الخدع النفسية لإجبار الذات على الاستسلام للمكان المتاح. فالفهم الغربي الرائج عن المهاجر، ككائن طامع في احتلال الفردوس الأوروبي، يتجاهل أن تلك الصورة ليست إلا وسيلة سيكولوجية بحتة لإنقاذ المهاجر من ثقل المتخيل، لإبعاده عن النداء السري في داخله للمضي أبدا باتجاه ما. فالجنة الغربية عند المهاجر ليست على علاقة مع مفهوم الجنة بالمعنى الدارج. إنها ليست بجنة اقتصادية أو سياسية، بل هي دال رمزي، علامة نفسية لهزيمة المتخيل أمام الواقعي.

ورؤية العالم على ضوء ثنائية „الشرق: الجحيم/ الغرب: الجنة" هي نوع من القضاء النهائي على الثنائية الجذرية „المتخيل/ الواقعي". من غير الممكن القضاء على البعد الراديكالي في الثنائية الجذرية، دون الاستعانة بتصور من نوع آخر يساعد على الاندماج مجددا في العالم. فأسطورة الغرب الفردوسي هي أحد أهم العناصر المحركة لعملية الاندماج. لن يستطيع الهارب الانخراط في عملية الاندماج الإجتماعي مع المجتمع الغربي والبيئة السياسية والثقافية الجديدة دون الاستعانة بأسطورة توازي في قوتها دافع الثنائية الأساسية، التي دفعت به إلى الهروب. فترويض المتخيل يحتاج إلى لغة واعدة، قادرة على دمج الأسطوري بالواقعي. فهذا الدمج لن يكون ممكنا دون الاستناد إلى معطيات واقعية كما هي الحال مع الحالة الغربية.

إن المهاجرين المؤمنين بأسطورة الفردوس الغربي، سيكافحون من أجل الانصهار الكلي في البوتقة الجديدة، دون الحنين إلى أمكنة أخرى سواء كانت واقعية أو خيالية. إنهم «البارفينيو»، حسب تسمية هانا آرنت، المتلهفون للذوبان في المحيط الجديد دون تردد. فعملية الاندماج لاتؤدي في النهاية إلى المصالحة مع المكان فحسب، بل تقضي على كل ميول التمرد على البيئة السياسية. فالمهاجر المندمج هو أقل الكائنات تذمرا وأكثرهم اجتهادا للظهور بمظهر المنضبط.

جماليات عدم الاندماج

النوع الآخر من الهارب يمثل النموذج النقيض، إنه الكائن المتملص من جبر المكان، غير القادر على الركون إلى السكون. فالمكان الافتراضي سيظل يحرك فيه رغبة المضي، رغبة الحركة باتجاه ما. ربما يسافر من قارة إلى قارة، من دولة إلى دولة ومن مدينة إلى أخرى، مسكونا بهاجس الانتقال. وسنقع في خطأ فادح إذا اختصرنا مشروع الهروب إلى الانتقال الجسدي المجرد بين الأمكنة. فالهارب الحقيقي، الكائن الباحث عن أرض بلا ملكية، عن بقعة غير موسومة بوشم القومية والدين، سيظل رغم بقائه في المكان المخصص له من قبل دوائر الهجرة، يتابع رحلته النفسية والفكرية داخليا، من خلال ارتيابه العميق بالمحيط الجديد. وعبر شك يقوده ربما الى اغتراب إنساني خلاق أو قد يقوده إلى النكوص والعودة إلى الماضي حيث تتراكم الصور الطفولية في الذاكرة عن المكان الأول، حيث كان حضن الأم يضفي على المكان سحره الأسطوري. فصورة المكان الافتراضي في مخيلة المهاجر تنبثق وتتخارج من صورة المكان الأمومي الأول، حيث طبيعة الانسجام بين الذات والعالم لا تخضع لمعايير قبلية. وإذا نحا المهاجر نحو النكوص، أي نحو الحنين إلى الأشياء المتعلقة بالذاكرة الطفولية، فقد تنحرف تلك الحركة عند البعض إلى نوع من العدوانية تجاه العالم. وتولد حينها، بدلا من الصورة الفردوسية للغرب، رؤية شيطانية تستفيد منها الجماعات الإيديولوجية المتطرفة لتوسيع الهوة بين المهاجر والبيئة الغربية.

إن عدم الانقياد وراء إغراءات الصورة الفردوسية للغرب ليست بظاهرة مخيفة أو سلبية. فمن الأهمية بمكان للمهاجر أن يحافظ على جزء من روحه المتمردة، أي ألا ينصهر كليا في الأمكنة. فالاندماج الكامل في البيئة أو الانصهار السلبي في البوتقة الاجتماعية يقضي على المسافة النقدية الضرورية بين الكائن الإنساني والمحيط الاجتماعي السياسي. والاحتفاظ بتلك المسافة شرط أساسي كي لا نتحول إلى ماكينات اجتماعية منقادة.

إن عدم الاندماج لا يعني أن نتحول إلى كائنات سلبية منعزلة، أو أن نصبح مخلوقات مغتربة ثقافيا ولغويا، بل يعني الإبقاء على ذلك الرعب الخلاق، الذي يؤدي الى «الصيرورة» الدائمة. أي أن نكون مستعدين للنداء النيتشوي في أن نعيش فى خطر، خطر التحول و الارتقاء. على المهاجر أن يتحول الى «نوماد بدوي» حقيقي بالمعنى الدولوزي. لايتحرك عبر الأمكنة الجغرافية فقط، بل يفتح «خطوط هروب» دولوزية وفضاءات جديدة. أي أن يحاول توسيع معنى المكان وإضافة خطوط التفات جديدة حول البنيات الساكنة داخل النظام العام. فالقابع في الرعب ليس كالقابع في الأمان. والخائف لا يستسلم لسهولة المكان، لشروط الرخاء السطحي، بل يفتح ثقافيا وحضاريا حقولا لم تكن موجودة من قبل. أي أن وجوده مهم للحضارة الإنسانية لأنه يمثل الكائن الذي لم يعد شرقيا أو غربيا، بل إنه نوع من الكاشف للآتي ومرشد لنوع إنساني لا يندمج في البوتقات الموجودة.

إذن هناك نوعان من عدم الاندماج، الأول نكوصي يحاول العودة إلى الوراء، رجعي وانعزالي. ينتج نوعا من الرغبة التدميرية ويعيش على هوس إلغاء الأمكنة الواقعية من أجل فسح المجال للمتخيل الافتراضي. إن بحثه المستمر عن مبرر ديني ورغبته الملحة في تدمير الغرب „والشرق أيضا"، علامتان على رغبته النكوصية في العودة إلى الجنة الطفولية. أزمة الذات والمكان تصل هنا إلى ذروتها. فظهور وانبثاق المكان الافتراضي مشروط

بعملية تدمير كاملة للذات والمكان معا. ففي نموذج المقاتل الديني الانتحاري نصطدم بنوع من الكائنات، ارتبطت عنده النزعة النكوصية مع الهوس التدميري للذات والأمكنة الواقعية.

النوع الثاني، كائن لا يؤمن بالفردوس الغربي، يطور نوعا من الحس الواقعي والإدراك النقدي تجاه الوضع الإنساني بشكل عام. لايستسلم للانبهار أو الكراهية. أزمته مع المكان الأول تصبح أساسا لنوع من الرؤية الكونية ودافعا دائما لكشف إمكانيات جديدة و طرق حياة لم تجرب بعد. إن كثافة التجربة في داخله تؤدي إلى تطوير نوع من الحس الإنساني العام يقوده إلى خارج الفهم الضيق للهويات. فهو مؤشر على ظهور نوع من الرؤية الإنسانية تستند على تعريف العنصر الإنساني بما هو فقط، خارج التسميات السياسية. في مكامن تجربة الهجرة، يوجد خطاب إنساني كامن، يرفض خنوع الكائن البشري لشروط البيئة السياسية ويرفض اختزال الإنسان إلى كائن ديني أو سياسي أو إثني. كائن لا يتمرد على الشرط السياسي في الشرق فحسب، حيث تتقاتل الهويات، بل يتمرد على منطق الحداثة الأوروبية أيضا، من خلال رفضه لأنظمة التصنيف القسري وآليات التقسيم البراغماتي والمقاييس النفعية البحتة لمفهوم الاندماج الاجتماعي. إن ربط هوية الكائن البشري بدولة ما، بكيان سياسي ما، بدين ما، وتعريف الإنسان وتصنيفه على تلك الأسس، واحد من أكثر الظواهر الخطيرة التي صاحبت مشروع الحداثة الأوروبية.

المهاجر كمدمر للمكان

ارتبط وصول موجات المهاجرين إلى الغرب بظهور أزمات اجتماعية وسياسية كبيرة في العديد من بلدان الغرب الأوروبي. ولا يمكن فهم طبيعة تلك الأزمات من خلال الشروط السياسية والاقتصادية الراهنة فقط. فالأزمة الحالية تعود بجذورها إلى بدايات الأنوار والصراع الطاحن آنذاك حول معنى عدد من المفاهيم الأساسية كالإنسان والمواطن والغريب. ومن الصعب فهم المشهد الحالي بدون العودة لمفاهيم فوكو حول السياسات الحيوية السائدة منذ أكثر من ثلاثة قرون في الغرب. ففوبيا الغرباء المستفحلة حاليا مرتبطة بخوف النظام السياسي والاقتصادي من ظهور كتل بشرية لا تندمج بسهولة في النسق البيوبولوتيكي العام.

فالمهاجر يجب أن يتحول و بسرعة رهيبة إلى موضوع للسيطرة، إلى جزء ضمن الهيكل التصنيفي بحيث يسمح للدولة بعمليات الفهم والمراقبة. فالخوف بالأساس هو من ظهور كتلة بشرية غير مفهومة وغير قابلة بسهولة للرصد المباشر والدائم. فالنظام، الذي طور وبشكل مستمر أنظمة حديدية للمراقبة والعقاب، يجد نفسه أمام ظاهرة لا يمكن استيعابها بالسرعة المطلوبة. أي أنه لا يستطيع دمج تلك الكتل في النظام البيوبولوتيكي بحيث يمكن مراقبتها واستخدامها بالشكل المناسب وفي اللحظة المناسبة.

إن ربط ظاهرة الخوف من الإرهاب بالخوف من الغرباء والمهاجرين، مؤشر مخيف على استعداد النسق العام للعودة إلى اللاعقلانية في مواجهات المخاطر. كما يعبر عن اصطدام الغرب بحدوده الذاتية القصوى. فنظام السيطرة التقنية على البشر، يصطدم هنا بنقصه الذاتي، بشرخه الداخلي غير القابل للانسداد. فالكثير من المؤسسات السياسية الفعالة في الغرب، لا تزال تعاند وتحاول إخراج الغرباء من التصنيف القانوني العام للبشر. والمبالغة في الخوف والارتفاع به إلى مستويات جنونية، ليست بصناعة خاصة لليمين المتطرف فحسب، بل هي جزء من آليات دفاعية يحاول الغرب عبرها تشديد وتجديد أنظمة المراقبة. فالمكان يتظاهر هنا بالانهيار، لكي يزود نفسه بحقوق إضافية تساعد على تشديد أنظمة العزل والمراقبة.

والتحذير في ألمانيا من الانهيار التام والترويج المجدد لمفاهيم كـ «سقوط الحضارة الغربية» و «الانتحار الحضاري» و «التمسخ الثقافي» لم تقف عند كتاب من أمثال تيلو سارازين وعاكف بيرنجي، بل طالت فلاسفة كبارا أمثال روديغر زافرانسكي وبيتر سلوتردايك أيضا. إن هذه الدرجة من الخوف، لا علاقة لها بالمغتربين، بل هي مرتبطة بالعودة إلى استعمال الخوف كسلاح فعال لتشديد السيطرة التوتاليتارية للدولة الحديثة على الحياة الفردية.

ومع ظهور المهاجرين وبأعداد كبيرة على الطرقات الغربية، عاد جزء من المكان الغربي إلى لحظة اللانظام، إلى وضعيته الطبيعية قبل ظهور خرافة الفردوس الأرضي. إن الصورة الفردوسية لم تكن فقط دلالة مرسلة من قبل الغرب لانتزاع إعجاب الآخرين وزرع عقدة النقص عند الحضارات المتخلفة صناعيا وسياسيا، بل كانت نوعا من الإيحاء الذاتي أيضا، لبناء علاقة بناءة بين الذات والمكان، بين الإنسان الغربي والبيئة السياسية المحيطة. والخوف المستيقظ حاليا لا يهدف إلى توعية الكائن الغربي بمخاطر الهجرة والمهاجرين، بل بالحد أيضا من تداعيات أخرى خطيرة، كانهيار عملية اندماج الفرد الغربي مع البيئة السياسية وتحوله نحو اليمين أو اليسار.

الأمان وضمان عدم ظهور عناصر دخيلة تزعزع بيئة الحياة اليومية، أصبحا في العقود الأخيرة من السمات البارزة للحياة عند الإنسان في المجتمعات الصناعية. فالفرد الغربي لم يعش، ومنذ عقود تحت ضغوط اجتماعية وسياسية مباشرة تدفع به نحو التطرف. ولم تخضع تلك الروح القلقة بعد الحرب العالمية الثانية إلى امتحان أخلاقي حقيقي لقياس منطقها التسامحي والعقلاني. لذا فالخوف من الكامن داخل الإنسان الغربي ليس بأقل من الخوف من الخفي والشيطاني عند المهاجر. والرهبة من قوى مجهولة تخرج من العقل السياسي الغربي وتدمر التنظيم العقلاني في الغرب، ليست بأقل من الرهبة مما قد يخفيه المهاجر في ظلماته الداخلية. وتدل المؤشرات الأولى على وجود اضطرابات حقيقية حول الصورة النفسية للمكان عند فئات

اجتماعية واسعة في الغرب. فهناك ما يمهد لعودة صورة المكان المرعب في الذاكرة الغربية.

إن ظهور الهارب بمظهره الغريب، بسحنته المختلفة وبخلفيته المخيفة، تسبب عند البعض، ونتيجة استيهامات تخيلية بحتة، في تغيير صورة المكان وتحويله إلى منطقة مسكونة „نفسيا" بالأخطار. إن هذا الكائن الغريب الذي مهد لعودة صورة „المكان الخطر" إلى الذاكرة الغربية وأيقظ الحس البارانوئي النائم في القاع النفسي وتسبب في حدوث موجات من رد الفعل اللاشعوري تجاه الغرباء، أصبح ينظر إليه ككائن بدائي لا يروض، كحيوان مفترس أربك السكينة التاريخية للغرب. فـ «ليلة كولونيا» الشهيرة، لم تكن إلا تجسيدا ضروريا ومتوقعا لصورة قبلية موجودة في المخيلة الأوروبية عن المهاجر. فالمهاجر ليس بكائن مرعوب فقط، بل مرعب أيضا. كائن لا يهرب من المكان فقط، بل يهرب منه المكان أيضا. فالهارب من دمار الأوطان، أصبح ودون أن يدري وأينما حل وارتحل مدمرا لنظام الأشياء والأمكنة.

بختيار علي كاتب وروائي كردي عراقي يقيم في كولونيا.

▪ ربما لا يعرف الكثيرون من الألمان أن لجوء السوريين خارج بلادهم ليس بجديد وأن هناك موجة لاجئين سياسيين سبقت الموجة الكبيرة الحالية بسبب الحرب. فالسوريون يفرون من النظام السوري منذ عقود، منذ أيام الطاغية الأب (حافظ الأسد)، ولتكتمل تغريبتهم على يد ابنه الدكتاتور الصغير «بشار».

حين يسكنك الخوف من الطاغية

تجربتي مع اللجوء إلى ألمانيا

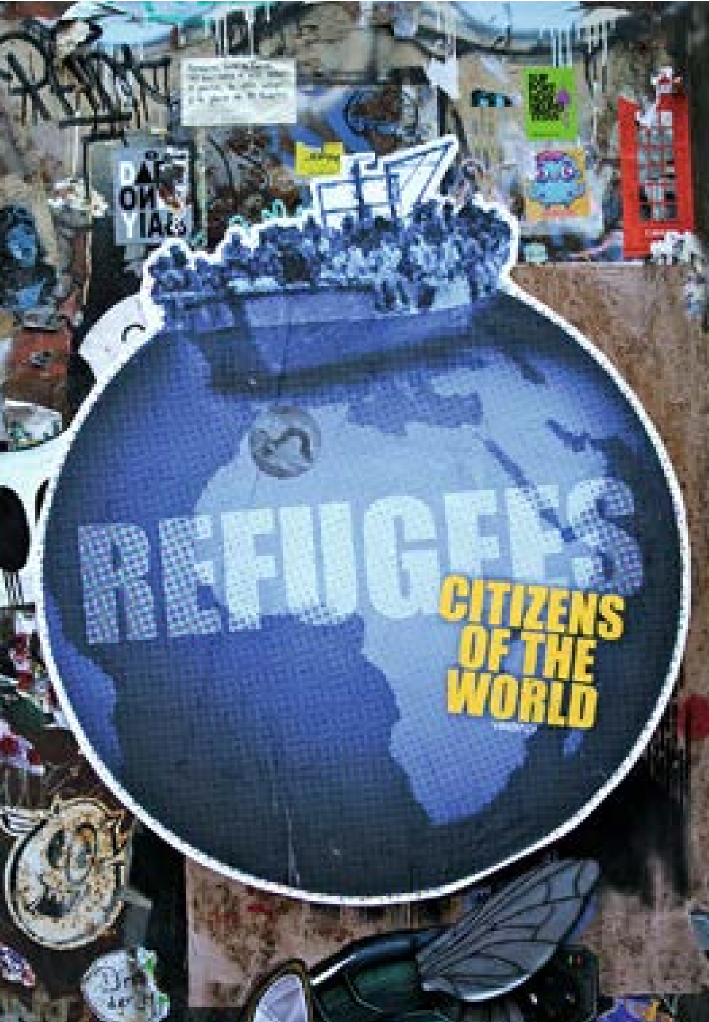
أحمد حسو AHMAD HISSOU

في السابع من نيسان من عام ١٩٩٧ وصلت إلى مطار فرانكفورت في ألمانيا مع زوجتي الألمانية بعد فترة انتظار في بيروت دامت أكثر من خمسة أشهر. يومها كان الجيش السوري يحتل لبنان ويتحكم بمعابره الخارجية، وخصوصا مطار بيروت الدولي. وأذكر حينها أن أحد المتطوعين في منظمة حقوقية عالمية في بيروت، ممن سهلوا لي كل الصعاب التي واجهتني كي أكون اليوم في ألمانيا، قال لي: سنساعدك في إجراءات السفر داخل المطار حتى تصل إلى آخر نقطة تفتيش قبل صعود الطائرة، وهي النقطة التي يتواجد فيها الجنود السوريون، أو بالأحرى مفرزة المخابرات العسكرية السورية. هناك عليك أن تتدبر أمرك، فهؤلاء ليس لديهم حرمة لأي منظمة دولية أو حقوقية، لا بل ويستفزون من وجودنا. وما يزيد الأمر صعوبة هو أنك سوري وفار منهم. كلام الحقوقي كان واضحا: علي أن أخوض المغامرة مجددا لوحدي، فحتى المنظمات العالمية تخشى بطش النظام السوري.

حاجز صغير يفصلني عن الحرية

إذن نقطة تفتيش صغيرة للمخابرات العسكرية السورية في مطار بيروت تفصلني عن الحرية وتبعدني نهائيا عن خطر أن أقع في قبضتهم مرة أخرى. الفكرة لوحدها كانت مخيفة مع أنها لم تكن جديدة ومفاجئة لي. فحافظ الأسد جعل هذه الأجهزة تتكاثر بشكل سرطاني كي تحبس أنفاس السوريين وتجعلهم طيعين لإرادته الدكتاتورية. ولم تعد هذه الأجهزة تتحكم بالسوريين داخل البلاد فحسب، بل امتد نفوذها إلى الدولة الجارة لبنان. فهذه الدولة ذات النظام السياسي الفريد، كانت على مدى التاريخ رئة يتنفس من خلالها السوريون الأحرار حين تضيق بهم السبل في بلادهم التي مرت بتجارب من الطغيان قاسية وعديدة لم تمر بها جارتهم الصغيرة.

وبالفعل سهل لي المتطوع والحقوقي كل الإجراءات داخل المطار إلى أن وصلت إلى حاجز الأمن السوري. يومها لم يكن قد مضى على خروجي من السجن وقت طويل، وأي خطأ صغير يعني العودة إلى ذلك المكان الرهيب الذي كنت فيه. كان شاب صغير الحجم والعمر يقف في حاجز المخابرات العسكرية السورية لوحده. وتبدو من ملامحه أنه من الريف السوري الذي لا يحمل كبير ود



غرافيتي في برلين.
Photo:
Achim Wagner

لطاغية دمشق. المكان كان غريبا. حيز صغير متقشف إلى أقصى درجات التقشف داخل مطار بيروت. حيز لا يبدو عليه في أي حال من الأحوال أنه حاجز للمخابرات العسكرية السورية التي ترتجف الركب لمجرد ذكر اسمها. لا أثر لمكتب، لا أجهزة كومبيوتر للتدوين والتدقيق. وحده سلاح العنصر المخابراتي كان واضحا وبارزا للعيان وكأن لسان حاله يقول: من هذا الجهاز فقط يستمد حافظ الأسد قوته وسلطته وبطشه. ربما الأمر الآخر الذي قلل من شأن استعراض قوة السلاح هذه، أن الشاب كان يحمل في يده كتابا. لكن من فرط قلقي وتوتري لم ألحظ أي نوع من الكتب كان يقرأ هذا العنصر المخابراتي. أرجح أنه كان يقرأ رواية يكسر بها ملل المكان الذي يتواجد فيه وإلا فإن الكتب التي يقرؤها عناصر المخابرات السورية، هذا إن قرؤوا أصلا، هي من نوع: „حافظ الأسد، شخصية تاريخية في مرحلة صعبة" لكريم الشيباني، أو كتب التوجيه المعنوي والاشتراكي لحزب البعث وقيادة الجيش.

أرجح أن هذا الجندي المخابراتي كان يؤدي الخدمة الإلزامية ولم ينتبهوا إليه قبل فرزه إلى هذا السلك الخطير. فقد سألني بلامبالاة وقرف عن مهنتي ولماذا أريد مغادرة لبنان. طريقة السؤال كانت توحي بأنه كمن حفظ درسا عن ظهر قلب، يريد أن يلقيه وكفى. إذ لم يبدُ عليه اهتمامه الشديد بملاحقة معارضي الأسد وخصومه في مطار بيروت ومنعهم من الإفلات من بطشه، وهي وظيفته الأساسية وسبب وجوده في هذا المكان الغريب. قلت له بصوت خفيض محاولا إخفاء لهجتي السورية، وإخفاء قلقي ومخاوفي: تم قبول لجوئي إلى ألمانيا، أنا مدرس!. لم يسألني ماذا أدرس، وأين كنت أدرس ولماذا ألمانيا بالذات!. كما أنه لم يدقق في ملامحي كثيرا وفي جواز سفري (ليسه باسيه) ولم يهتم بجوابي، وعلى الفور سلمني جواز السفر وأشار لي بالعبور قائلا: „مع السلامة".

التخابر مع جهة خارجية

اللحظات القصيرة أثناء تدقيق الشاب السوري في هويتي كانت تعادل دهرا. فلو اكتشف هذا العنصر المخابراتي أمري، فمعنى ذلك العودة إلى السجن مجددا ولفترة لا يعلم الله كم ستطول هذه المرة وبأي تهمة. وإذا كانت التهمة في المرة الأولى „الانتماء إلى كيان سياسي يسعى لقلب نظام الحكم وتعكير صفاء الأمة عبر نشر إشاعات كاذبة"، فإن التخابر مع جهة خارجية ستكون أسهل وأسرع تهمة في هذه الحالة. إذ كنت، أنا السجين السياسي السوري السابق والمعارض للنظام، أحمل جواز سفر ليس باسمي، وأغادر به لبنان بتذكرة سفر رسمية باتجاه واحد، إلى ألمانيا، يعني خروج دون عودة. والطريف في الأمر هو أني فعلا „تخابرت مع جهة خارجية". فقد تلقيت مساعدة من السلطات الألمانية التي وافقت على لم شملي العائلي بحكم أن زوجتي ألمانية ومن حقها أن تعيش مع زوجها في ألمانيا. بمعنى أن „تهمة التخابر مع جهة خارجية" لن تكون ملفقة مائة في المائة لو وجهت إلي، على عكس تهم أجهزة الاستخبارات السورية الأخرى. فبعد فترة تردد طويلة ومحاولات عديدة واتصالات بين بيروت وبرلين وافقت السلطات الألمانية على أن أدخل ألمانيا باسم غير اسمي شريطة ألا تطأ قدماي أرض ألمانيا بذاك الاسم. وكي يتحقق هذا الأمر تماما، وتمر هذه السابقة دون أخطاء قد تضر بـ «السيادة»، اتخذت السفارة الألمانية في بيروت إجراءات دقيقة وصارمة جدا. فقد أعدت لي وثيقة سفر ألمانية باسمي الحقيقي كي استلمها في مطار فرانكفورت وأتحرك بها داخل ألمانيا. وبالفعل صعد شرطيان إلى الطائرة بمجرد هبوطها وأخذا يدققان في أوراق الركاب. كنت أعرف أني وحدي المقصود بهذا الإجراء. وبالفعل حين وصل الدور إلي أخذا مني أوراقي وطلبا مني أن أرافقهما. نزلنا من الطائرة ومشينا معا إلى «مخفر» للشرطة ليس ببعيد حيث استلمت وثيقة السفر الألمانية، ولتختفي آثار الجواز الذي دخلت به ألمانيا.

الخوف من النظام حتى في الأجواء

وقبل صعود الطائرة، في مطار بيروت، اقتربت مني زوجتي لتطمئن إذا كان كل شيء قد تم على مايرام. بادرتني بالسؤال بصوت خفيض: خلاص؟ (يعني هل انتهى كل شيء؟) أشرت لها بعصبية أن تبتعد عني حتى نصعد الطائرة وتطير بنا وتصبح خارج الأجواء اللبنانية. فأي خطأ صغير هنا أيضا يعني اكتشاف أمرنا ونعود بالتالي إلى نقطة الصفر. فقد كنا اتفقنا على أن نسافر معا على نفس الطائرة، لكن أن يعمل كل واحد إجراءاته منفردا وكأنه يطير لوحده. وحين صعدت سلم الطائرة انتابني شعور غريب. لم أكن أصدق بأني في طريقي إلى التحرر من قبضة النظام السوري. فحتى في الطائرة لم أشأ التحدث مع زوجتي في البداية. كان الخوف من النظام معششا في داخلي. كنت أخشى أن يكون على الطائرة جواسيس للنظام أو عناصر من مخابراته. وحين طارت الطائرة وأخذت تبتعد شيئا فشيئا عن منطقة الشرق الأوسط بدأت أصدق أني أبتعد فعلا عن دائرة تأثير النظام وأخذت أشعر بالحرية أكثر فأكثر. وحين وصلنا إلى مطار فرانكفورت، وقبل صعودنا إلى القطار الذي سيقلنا إلى مدينة كولونيا حيث سنستقر، اتصلت بأمي وقلت لها: ارتاحي يا أمي، صرت في ألمانيا.

أحمد حسو من أسرة تحرير مجلة «فكر وفن».

■ ربما لم ينتبه الكثيرون في زحمة أزمة اللاجئين، أن هناك ١٥٦ لاجئا من أريتريا وإثيوبيا تم اختيارهم من معسكرات اللاجئين في شرق السودان من أجل إعادة توطينهم في ألمانيا. وحتى لا تكون صدمة هؤلاء بالمكان الجديد كبيرة، أعد معهد «غوته» بالخرطوم ورشة تنويرية لهم قبل سفرهم إلى ألمانيا.

الهروب من تاريخ مليء بالخيبات

لاجئون من أريتريا وإثيوبيا يتهيئون للحياة في ألمانيا

عبد السلام الحاج ABDALSALAM ALHAJ

وقفت «سارة» تتأمل الخريطة المعلقة على الحائط أمامها. أخذت تنظر بعمق. باغتتها شقيقتها الصغرى بسؤال: هل سنعيش „كلنا" في تلك المدينة؟ وهي تشير بيدها إلى مدينة «برلين». وبصوت خافت ردّت «سارة» بأنها لا تعرف. كانت الأستاذة «يوديت» تعبر الرواق في تلك اللحظة فردت على السؤال المطروح: لا يا عزيزتي، ستوزعون على مدن مختلفة، ولكن ربما تلتقون مرة أخرى في أحد الشوارع هناك. همهمت «سارة» بصوت باهت بينما أكملت شقيقتها الصغرى كوب الشاي الذي كان في يدها. في تلك اللحظة جاء صوت «ليلى» من أمام باب قاعة الدراسة معلناً انتهاء وقت الاستراحة، فتدافع الجميع بصورة حماسية لمواصلة ما تبقى من الورشة التنويرية في يومها الأول.

كانت القاعة مستطيلة الشكل، شبه مظلمة، لكنها أعدت جيدا لاحتضان الورشة. في هذا المكان، الذي يقبع داخل أحد فنادق العاصمة السودانية الخرطوم، يجلس عدد من اللاجئين، يحملون دفاتر وأقلاما وأحلاما لا تحدها حدود. ٥٠٪ منهم تحت سن الـ ١٧ عاما، هربوا من أريتريا، وآخرون جاؤوا من إثيوبيا. جزء كبير منهم ظلوا لأكثر من ثلاثة أعوام في معسكرات اللاجئين. واليوم يشعرون بأنهم قد اقتربوا من نهاية هذا المشوار الطويل رغم مسحة الإرهاق التي تظلل ملامحهم الشاحبة.

التهيئة للعيش في ألمانيا في النصف الأخير من شهر نوفمبر ٢٠١٥ ، وخلال خمسة أيام متتالية، أقيمت هذه الورشة التنويرية في الخرطوم للاجئين، الذين اختارتهم ألمانيا من معسكرات اللاجئين بالسودان لأول مرة منذ زمن طويل. تم تصميم وتنظيم هذه الورشة بواسطة معهد غوته في السودان، وهي تهدف إلى تهيئة هؤلاء اللاجئين للحياة الجديدة التي تنتظرهم في ألمانيا.

جزء كبير من هؤلاء اللاجئين مروا بظروف حياتية صعبة، سواء هنا بالسودان أو في بلدانهم الأم. فبداية مشوار جديد هو عبء نفسي ثقيل، والتفكير في المستقبل مرهق جداً، خاصة إذا كان الماضي مؤلما. «صوفي الطيب» الأستاذة بمعهد غوته ومنسقة الورشة التنويرية تقول: „في هذه الورشة يتمحور عملنا حول مساعدة هؤلاء اللاجئين على كيفية تسيير حياتهم في ألمانيا، بالتركيز على الأسابيع الأولى هناك، لأنها الأصعب نفسياً وذهنياً". فقد تم تصميم هذه الورشة من أجل إزالة القلق من البدايات، مع مراعاة „توفير أكبر قدر من المعلومات التي يحتاج إليها اللاجئون من أجل مزاولة حياتهم هناك بصورة طبيعية".

تم توزيع المشاركين على فترتين، صباحية ومسائية، ويشرف على تدريسهم أربعة أساتذة من معهد غوته. الدراسة كانت بلغتين، إذ كان هنالك فصل باللغة العربية، لأن عددا كبيرا من هؤلاء اللاجئين يتحدثون اللغة العربية لاستقرارهم لفترات طويلة في السودان. أما الفصل الآخر فكانت الدراسة فيه بلغة «التغرينجا»، وتشرف عليه الأستاذة «يوديت» وهي ألمانية الجنسية أريترية الأصل، تم استقدامها لهذه الورشة من ألمانيا لكي تقوم بتدريس اللاجئين الأريتريين الذين لا يتحدثون سوى لغتهم الأم «التغرينجا». احتوى برنامج الورشة على تدريب يومي على أساسيات اللغة الألمانية، كما تناولت على مدار الأيام الخمسة موضوعات كثيرة كطبيعة الحياة في ألمانيا (السكان، العاصمة، المدن الكبرى، الثقافة، العادات والتقاليد). كذلك تم تزويد المشاركين بمعلومات عن القانون الألماني والإقامة، الحقوق المدنية، المعاملات المصرفية، السكن والتنقل والاتصالات والدراسة.

القلق والإرهاق النفسي عندما شرعت «يوديت» في عملها ضمن فريق الورشة التنويرية، كانت تطأ مجالاً ليس بالجديد عليها تماماً، لكنها تخوض لأول مرة تجربة نفسية في غاية الصعوبة. وهي تصف تلك البداية بالقول: „عملت في ألمانيا كمدّرسة لأكثر من خمسة أعوام، ولكنني هنا الآن أقوم بتدريس أبناء بلدي باللغة المحلية، أنا أعرف تماماً ما يشعرون به... ، فأنا أيضاً كنت لاجئة ..".

كان الفصل المسائي للأستاذة «يوديت» يضم ٢٣ مشاركا، وهو قوام ثلاثة أسر بأطفالها، بالإضافة إلى بعض الشباب والشابات. والكثيرون منهم لا يعرفون عن ألمانيا أي شيء. بيد أن ما يتفقون عليه جميعاً هو أنهم هاربون من تاريخ ثقيل مليء بالخيبات، لذا جل ما يهمهم الآن هو أن ينعموا بحياة كريمة في البلد الجديد.

وخلال الورشة تم طرح سؤال حول مخاوفهم من الحياة في ألمانيا؟ فكانت إجاباتهم تتراوح حول الاندماج في المجتمع، العنصرية، السكن، تكوين الصداقات، تربية أطفالهم، تعلّم اللغة، السفر وحرية التنقل وممارسة الشعائر الدينية. كما كانوا يرغبون في معرفة المزيد حول كيفية تعامل الألمان معهم، هل سيتم الترحيب بهم؟ وكيف يمكنهم التواصل وهم لا يعرفون اللغة الألمانية؟

أسباب اللجوء

تعاني القارة الإفريقية من موجات كبيرة للجوء، إذ لا يمر عقد على إفريقيا دون ظهور نسب متفاوتة في أعداد اللاجئين. ومن الأسباب التي تقف وراء خروج الناس من بلادهم، المشاكل السياسية والصراعات الداخلية التي تندلع في عدد من دول جنوب الصحراء. كما لعبت مشكلة الجفاف والتصحر واستمرار التدهور البيئي والمجاعات والكوارث الطبيعية، كالتي حدثت في عام ١٩٨٤، دورا كبيرا في موجات الهجرة هذه.

كذلك أفرزت الحروب الأهلية، التي حدثت في الستينات والسبعينات في كل من رواندا وبوروندي وأوغندا وتشاد وزائير وأخيراً السودان، عددا كبيرا جداً من اللاجئين.

وبالرغم من عودة معظم اللاجئين إلى بلدانهم الأم، عبر فترات متفاوتة منذ مطلع التسعينات، ظلت مشكلة اللاجئين في إفريقيا إلى يومنا هذا موضع التفجر في كل حين. وما لم يحدث إصلاح سياسي جذري في تلك الدول المصدرة للاجئين فلن يتوقف الناس عن البحث عن ملاذات آمنة.

اللاجئون في السودان

خلال العقد الأخير برزت حركة نزوح داخلي جديدة في السودان، ناجمة عن الصراع في دارفور وجنوب كردفان والنيل الأزرق. فقد شهدت البلاد في الفترة الممتدة من يناير/ كانون الثاني إلى أغسطس/ آب من عام ٢٠١٤ نزوح حوالي ٤٠٠,٠٠٠ شخص جديد.

ولكن مع هذه الأرقام الكبيرة في حركة النزوح في البلاد، يستضيف السودان عددا من اللاجئين وطالبي اللجوء. وهو يستضيف حالياً ١٦٧,٠٠٠ لاجئ وطالب لجوء في شرق السودان ودارفور والخرطوم، أغلبهم من الأريتريين والأثيوبيين. وانضم إليهم مؤخرا لاجئون من سوريا. ومن المرجح أن يرتفع هذا العدد، ووِفقا لمفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين يعبر كل شهر أكثر من ٤ آلاف إريتري الحدود إلى إثيوبيا أو السودان بشكل غير نظامي. وتشير التقديرات إلى أنه بحلول نهاية عام ٢٠١٥، وصل عدد اللاجئين وطالبي اللجوء في البلاد إلى ١٦٠,٠٠٠ شخص.

وفي يناير/ كانون الثاني ٢٠١٤ بدأت المنظمة الدولية للهجرة (IOM) في السودان وبالتعاون مع المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين (UNCHR) وبالتسيق مع إدارة الهجرة والأجانب، وسلطات مطار الخرطوم الدولي، بتيسير مغادرة ٢٥٥٣ لاجئاً ومهاجراً من السودان لإعادة توطينهم في ١٣ دولة حول العالم.

عبد السلام الحاج باحث ومحرر رقمي ومدون من السودان، عضو شبكة مدونات عربية، يعيش في الخرطوم.

■ لا أشعر أني لاجئ أو مهاجر أو قدمت إلى مكان غريب لا أحس فيه بوجودي. لا أصدق الأوراق والبطاقات الألمانية الممنوحة لي بعيد وصولي، والتي صنفتني «لاجئاً وفق قانون رقمه ٢٢». لا أصدق أيضا أني أعيش حاليا في مأوى مشترك مع عائلات أخرى. أصدق فقط أني سعيد هنا في أرض الراين، غير مكترث لأي تصنيفات إدارية وقانونية.

لست لاجئا ولا مهاجرا

العودة إلى كنف بيتهوفن

محمد الأصفر MOHAMAD ALASFAR

حكايتي مع ألمانيا قديمة جدا. ففي عام ١٩٧٩ قمت بأولى رحلاتي إلى أوروبا، ومحطتي الأولى كانت بون، التي عشقتها بسبب بتهوفن. فعندما كنت صبيا، قرأت عدة كتيّبات صغيرة لأعلام في الفن والأدب كان من ضمنهم بتهوفن. وذات يوم في حصة التعبير كتبت موضوع إنشاء عن موسيقانا الشعبية في حي الوحيشي ببنغازي، وتطرقت فيه لحياة بتهوفن العاطفية والعملية والصحية، خاصة صممه. مدرس اللغة العربية السوري أستاذ ربيع، لفتت نظره المقالة ـ الإنشاء فسألني:

– هل حقا تعرف بتهوفن وسمعت موسيقاه؟

– أعرفه من خلال الكتب، قرأت عن موسيقاه فقط، وأضفت: ربما أكون قد سمعتها في أحد الأفلام دون أن أعرف أنها لبتهوفن.

في اليوم الثاني أحضر لي شريط كاسيت به بعض سيمفونيات بتهوفن. عدت للبيت وسمعته بشوق وحب وانتشاء أشعرني بقشعريرة مختلطة بفرح وبكاء.

عشية خريفية وصلت إلى بون ـ بنغازي فرانكفورت كولن جوا ـ باص صغير رمى بي وسط بون. أول شيء شاهدته تمثال لبتهوفن بردائه الشبيه بأردية الفلاسفة الإغريق وشعره المتماوج كليل مجنون. حقيقة لم يكن تمثالا واحدا، كانت تماثيل كثيرة متنوعة، رأس، جسد كامل، نصف جسد، المطاعم أمامها التمثال نفسه، والحانات، وحتى في بعض البيوت بالمدينة، تجد قرب أكرة الباب نقشا معدنيا لبتهوفن.

الفندق الذي اكتريت غرفة فيه بخمسين ماركا اسمه سافوي، منذ ١٩٧٩ لم أره، لكن مساء يوم ٢٠١٥/١٢/٣١، وأنا ذاهب للاحتفال بليلة رأس السنة قرب الجسر والمسرح ونهر الراين وجدته يميني، لم يتغير في الفندق أي شيء! وقفت أمامه متطلعا للألعاب النارية المطلقة في السماء، وقلت: الزمن فعلا يجري، معي نقود، ولا أنوي العودة للمأوى ليلا.

سألت عاملة الريسبشن، أريد غرفة.. هل لديك حجز؟، نعم. اسمك لو سمحت؟، وأخذت تتطلع إلى شاشة الكومبيوتر، رفعت رأسها مبتسمة وقالت اسمك غير مدوّن؟ عفوا متى حجزت، منذ زمن طويل، عام ١٩٧٩، عندما سكنت هنا، ضحكت.. هل أنت سكران.. لا.. طبيعي.. دفعت لها بمجلة بانيبال.. بها نص «العودة إلى بون»، أعطيتها المجلة، وأشرت إلى تطرقي إلى فندق سافوي، قرأت عدة سطور، عظيم، عظيم، تعال إلى هنا، ماذا تشرب؟

لم تكن الموظفة جميلة، خاصة جسمها الذي غزته السمنة في أكثر من موضع، لكن ليلة رأس السنة ينبغي أن تقول لأي شيء أنت جميل ولطيف ورائع وممتع وسنة جديدة حلوة، إياك وإيذاء المشاعر في تلك الليلة بأي شكل كان.

عزف غيتار يصل مسامعي، عزف ناعم جدا، ينتشلك من أي خشونة أذى. أخرجت رأسي من النافذة، فتاة تعزف على الغيتار وتمشي برشاقة، العزف ماشيا أمر صعب، لكن هناك من يمارس حياته ماشيا، يدخن، يفكر، يتبول، يأكل، يحلم، ينام، أيضا يمارس الجنس إن وجد جسدا على مقاس خطوته وطوله. أطلت النظر في الفتاة، تعزف وتمشي ببطء، كأن الموسيقى تحرك قدميها، مؤخرتها المستديرة تهتز كنغم، على ظهرها حقيبة صغيرة ومن كتفها يتدلى حزام به صندوق الغيتار. ما عدت أحتمل المشاهدة، نزلت سريعا.

لم أجدها حيث كانت تمشي، كانت قد انعطفت إلى شارع آخر، لا صوت غيتار حاليا أسمعه، اللحن أشعر أني قد سمعته من قبل، ربما لبتهوفن، لماذا أنزلتني الموسيقى من غرفة الفندق ثم صمتت، هل أصابها البكم، كما أصاب بتهوفن الصمم، ما علينا.. الفنانون دائما حواسهم الظاهرية معطوبة، فلنواصل اقتفاء الأثر بحاسة الأمل، آه.. ربما توقفت الفتاة لإشعال سيجارة، أو شرب قهوة، لم أفقد الأمل، ولابد من اقتفاء أثر اللحن عبر صدى الخيال.

العزف يصل ضعيفا جدا الآن، يأتي من مكان بعيد أكيد، أصوات الباصات تشوشه قليلا فيغيب تماما، أرفع رأسي وفمي إلى السماء كديك ينصت إلى قطرات مطر، يعود العزف ما إن يبتعد الباص عن المحطة، اللحن بدأ يرتفع، ودقات قلبي ترتفع، وخطواتي التي أطلقتها بشكل أهوج في كل الشوارع المحيطة

تسرع أكثر.. وجدت البنت، واقفة تحت تمثال بتهوفن الرابض أمام مبنى البريد العتيق، حقيبة ظهرها مرمية على الأرض، وصندوق غيتارها مفتوح يبتسم للسماء، كنت سعيدا جدا، عرفت أني سعيد بسبب موسيقاها، هي واثقة في أناملها في أوتارها في روحها، ابتسمت لي فالِتة عيونها الزرقاء في عيني وواصلت العزف.

عشت مع تلك الفتاة أياما جميلة، حوالي ثلاثة أشهر، كنت صغيرا آنذاك، ١٧ سنة تقريبا. لم أمكث بعدها في ألمانيا طويلا، عدت إلى ليبيا. كان مزاج البلد آنذاك سيئا، حرب مشتعلة بين ليبيا وتشاد، شباب المدارس يزج بهم القذافي في الحرب فيذبحون هناك، الإعلام كله مسخر لدعم مغامرات الديكتاتور الحربية والإرهابية في كل أنحاء العالم. كنت محبطا آنذاك لفقدان حبيبتي، وأيضا لموت عدة أصدقاء وجيران في حرب تشاد وفي إعدامات ميدانية نفذها النظام الديكتاتوري في الساحات والملاعب ونقلها في التلفاز مباشرة!

وعندما هاجمنا الظلام في ليبيا، هربنا في النهار، تنقلنا من مكان إلى آخر واختفينا لدى أقارب لنا في غرب البلاد. لم تكن فكرة الهجرة واردة لدينا، نحب السفر لكن نحب العودة إلى ليبيا أكثر وإلى مدينتنا بنغازي بالذات. بقينا في مصر سنة وأكثر ثم عدنا. بقينا في معظم مدن ليبيا فترة من الزمن ثم عدنا إلى بنغازي، ليس لدينا عنوان ثابت، في كل مكان يوجد من يترصدنا، اضطررنا أن نغادر ليبيا من جديد. قلت لأسرتي إن كنتم تريدون الذهاب إلى ألمانيا فأنا موافق، بلد آخر لا. الكل تحمس للسفر إلى ألمانيا. كان الطريق صعبا ومملا لكن نجحنا في تخطي الصعاب. قدمت الأوراق للسفارة الألمانية في تونس، وانتظرنا ستة أشهر حتى جاءت الفيزا. تعبنا كثيرا في الستة أشهر هذه في تونس. أنفقنا كل مدخراتنا وتسولت من الأصدقاء. أنا أثق في أن الألمان سيوافقون، لكن إجراءاتهم بطيئة، علينا أن نصبر، لم نفقد الأمل، كما لم أفقد اللحن القديم الذي أعادني إلى هنا من جديد.

في السفارة يقولون لي قالت لنا الخارجية إنك كذا وكذا ونحن نصدقك وندعمك. السلطات الألمانية منحتني صك ثقة، إن أردت الكذب يمكنني أن أكذب لكن قلت لهم الحقيقة، كتبت لهم عن حالتي بصدق. أحب أن أصل إلى أهدافي على شعاع الحقيقة، حتى وإن كان كسولا أو بطيئا. عدة أصدقاء تحصلوا على لجوء ولهم تجارب قديمة لقنوني كلاما كي أقوله أو أكتبه حتى يقبل اللجوء، لكن لم أفعل. أعرف أن ألمانيا تحترم الصادقين وتقدرهم وتفتح لهم قلبها. كان كلامي ضعيفا إلى حد ما في المقابلة في تونس، لكنه الحقيقة الموضوعية.

عندما وصلت الموافقة اتصلت بي السفارة هاتفيا. محمد تعال احضر معك تأمينا صحيا مبروك اللجوء قبل والفيزا وصلت. جئت للسفارة كما كل مرة، فتحوا لي الباب دخلت، كل الموظفين مبتسمون، أشارت لي الموظفة كريستينيا من خلف الشباك أن أنتظر حتى ينهوا إجراءات بعض المراجعين. بعد ذلك جاؤوا كلهم إلى شباك واحد وسلموني جوازات السفر وكلهم فرحون ومبتسمون وهنأوني كثيرا وكان الموقف صعبا بالنسبة لي، بل إنه غير محتمل. تذكرت حبيبتي الألمانية القديمة عازفة الغيتار، واستدعيت لحنها وبدأت أترنم به بينما قلبي لم يكن يدق.. كان يبكي.

وصلنا إلى مطار كولن بون، لا صديق في استقبالنا. أصدقاء في بون أعرفهم من قبل كان بيننا تواصل ومراسلات وعدوني بالدعم، لكن عندما صار سفري حقيقة تخلوا عني. كنت قد حجزت في فندق لليلتين، ليس معي سوى ٣٠٠ يورو أرسلتها لي صديقة ألمانية. ختمنا جوازات السفر وخرجنا من بوابة الجوازات والجمرك كي نكتري تاكسي للفندق. وجدنا شابا هنديا يحمل لافتة مكتوبا عليها عائلة الأصفر. قلت له نحن، تبعناه، قاد بنا أتوبيسا سياحيا فخما، أتوبيسا مريحا، فتح على أغنية هندية. ابنتي «مهجة» تحفظها، سبق أن سمعتها في مسلسل هندي. بدأت تغني مع الأغنية. ابتسم الهندي الشاب وارتفعت ألفتنا.

نقلنا إلى مأوى في شارع كولن شتراسه. وجدنا مسؤولا رحب بنا. وقعنا على ورقة، ثم أعطانا غرفتين كبيرتين تفتحان على بعضهما بعضا بهما تدفئة وأغطية. كان الوقت مساء، وكنا منهكين من السفر. في الطائرة لم يقدموا لنا أكلا، كان معنا زميتا (طحين ليبي يعجن بالماء والزيت) وزيت زيتون وتمر وحليب. أكلنا من هذا الزاد الليبي ونمنا جميعا جنب بعض. وفي الصباح خرجنا إلى الشوارع، إلى الحياة.

محمد الأصفر روائي ليبي يقيم حاليا في مدينة بون بألمانيا.

لم تكن الأعوام الخمسة السابقة بسهلة، فالحياة لا تعود إلى سابق عهدها حين تخسر منزلك وأصدقاءك، وفوق كل شيء تفقد الوطن. والتحول من مواطن إلى لاجئ يحدث تدريجيا. بيد أني لم أدرك ذلك فورا، إذ كنت أتنقل كثيرا داخل سوريا وفي تركيا أيضا.

الرحلة المجنونة

المخاطرة الأخيرة

نور كلزي NOUR KELZE

غادرت منزلي في منتصف ٢٠١٢ ولم أعد إليه حتى الآن. ولم يفقدني التنقل في سوريا الإحساس وكأنني في المنزل، حتى عندما كنت أبتعد عنه، إذ بقيت ضمن حدود الانتماء. أما في تركيا فمصطلح الضيوف السوريين كان يوهمني بأنني لست لاجئة، فأنا في الحقيقة لست فخورة بكوني لاجئة. ولم يكن اتخاذ قرار المغادرة سهلا، بيد أن الطريق إلى أوروبا أصبح أسهل من الطريق إلى داخل سوريا.



لافتة ترشد اللاجئين إلى مركز الصليب الأحمر في برلين.
Photo: Achim Wagner

سبع دول قبل الاستقرار

أفتح الخريطة: سبع دول „فقط" تفصلني عن الاستقرار الذي أبحث عنه. ليس هذا فحسب، بل يجب توفير مبلغ من المال ليس بالقليل أيضا، لكني كنت أقول لنفسي: لا يهم. ألفا دولار أمريكي فقط هو مبلغ شراء حياة بعد كل هذا الموت.

لم أكن أفكر في الغرق عندما انتظرت على الشاطئ في نقطة التهريب. ولم أفكر به عندما كدسنا المهربون في القارب المطاطي وتركونا نهيم بين الأمواج. كنت فقط أراقب الوقت بينما امتلأ القارب بالمياه وصرخات النساء والأطفال من الأمواج التي وجدت طريقها إلينا، نحن الركاب. قام الرجال بتقديم القرابين للبحر. تخلوا عمّا تبقى من مقتنياتهم، التي جمعوها على مر السنين لتكمل معهم المشوار في حياة جديدة من أجل النجاة. نصف ساعة فقط يجب ألا نغرق. علينا أن نحافظ على التوازن لنصف ساعة فقط حتى نصل، لكن كم كان الوقت يمر طويلا. ساعتان ونصف مضت وكأنها الأبدية. ارتمينا جميعا على الشواطئ اليونانية. ثمة من بكى من شدة الفرح غير مصدق أنه لايزال على قيد الحياة، آخرون كانوا يضحكون بطريقة هيستيرية لأنهم تغلبوا على الموت. فالسوري يصارع الموت مئات المرات ولكنه يجد طريقه للحياة في نهاية المطاف. كنت أعلم أن الرحلة قد بدأت للتو ولكني لم أدرك مدى المشقة التي كانت تنتظرني حتى أصل إلى هدفي. لم أفكر بشيء في تلك اللحظة، كنت سعيدة لأن أخطر جزء من الرحلة قد أصبح خلفي.

يوم الحساب

اصطف البشر على الحدود في مشهد وكأنه من مشاهد يوم الحساب. من بلد إلى بلد، رجال ونساء وأطفال وشيوخ يسيرون

في رحلة البحث عن الأمل في حياة جديدة. تم حشرنا في القطارات في المساحات التي كانت متوفرة؛ في الممرات الضيقة بين الكابينات. وحتى في المناطق التي تفصل قاطرة عن أخرى كنت تجد أكواما من الأجساد البشرية ارتمت وافترشت الأرض من التعب والإرهاق.

وفي كل نقطة حدودية انتشرت قوافل المساعدات من ملابس وبطانيات. كان المتطوعون يقدمون لنا الشاي الساخن أيضا. ولكن في صربيا لم يكن هناك الكثير من المتطوعين ولم تكن الشرطة تنظم شيئا. كان علينا أن نقف في العراء في صفوف تحت المطر. لا أولوية للنساء أو للأطفال أو المسنين. بعض العائلات قضت ثلاثة أيام في الانتظار قبل أن تنطلق إلى الوجهة القادمة.

تنقلنا عبر البلاد قاطعين عرضها بالقطارات، وعند الحدود يصرخ الشرطي „ون لاين" أي صف واحد ويكررها موضحا المعنى باستخدام يديه. مشيا على الأقدام كنا نقطع الحدود الفاصلة تحت المطر والغيوم „ون لاين، ون لاين".

وفي هنغاريا اضطررنا للغوص في مستنقع وحل قرب هضبة وقفت عليها سيارة الشرطة مراقبة عن بعد كيف كانت عجوز تتكأ على عكازها الزهري في محاولة قطع كل هذه الأميال. وفي أحد الطوابير تشاركنا قصص الرعب والنجاة عن الرحلات البحرية في القارب المطاطي. لم يعد البحر يحمل نفس المعنى والصورة لكل من قطعه. أصبحنا نكره البحر ونكره الرمال لما تركته من آثار في الذاكرة. لم أشعر حينها كما أشعر الآن عندما أفكر في الرحلة. على الطريق يسيطر عليك هاجس الوصول، فأنت لا تفكر إلا في المرحلة القادمة، البلد التالي، والقطار الذي سيحملك عبر أراضيه. أنت لا تشعر بالتعب إلا بعد الوصول.

الكاميرا والموت والثورة

عندما حملت الكاميرا في بداية الثورة السورية لم أكن اكترث للموت. كان دافع إيصال الصورة للعالم الخارجي كافيا لي. أربع سنوات كنت أرافق الكاميرا والموت في كل خطواتي حتى جاءت اللحظة الفاصلة في عام ٢٠١٥ عندما كثر الموت ولم يعد له معنى. لماذا أموت ما دام موتي لن يغير أي شيء؟ سؤال ظل يراودني في كل مرة أحاول فيها إيجاد طريقي إلى داخل سوريا.

فعندما نتخذ قرار السفر، نبحث نحن اللاجئين عن وطن جديد، فوطننا لم تعد فيه فرصة للحياة، أصبح الموت يتقاسمه ببساطة. وغريزة البقاء هي التي دفعت أعدادا كبيرة من الناس للقيام بهذه الرحلة المجنونة، بهذه المخاطرة الأخيرة.

ألمانيا وبيروقراطية الأوراق

وها أنا ذا في ألمانيا منذ ستة أشهر، ومازلت أتنقل من مكان إلى آخر. وعندما وصلت لم أكن أدرك صعوبة العيش في الفراغ القانوني، فقد صدمتني بيروقراطية الأوراق. قطعة صغيرة من الورق تمنحني الآن حرية التحرك والتنقل والبحث عن العمل. التخبط وقلة التنظيم في بلد التنظيم وأكوام الأوراق على مكاتب الموظفين توضح حجم الضغط على الحكومة الألمانية. „يجب عليك أن تتحلي بالصبر فأعداد اللاجئين في ألمانيا كبيرة". كان هذا هو الجواب الذي أسمعه لأي سؤال أطرحه.

أسكن الآن في مكان ناءٍ على أطراف ألمانيا وفي صالة رياضية. فأنا من سكان الصندوق رقم تسعة. تطاردني أصوات الطائرات والقصف في اللاوعي لتكشف عن نفسها أثناء النوم. وجدت نفسي في سوريا أختبئ مع كاميرتي وراء حائط المدرسة من الطائرة الحربية التي كانت تقصف الشارع المجاور وتعود أدراجها وليسقط البرميل المتفجر على المدرسة وأرى سوادا لأستفيق.

سيظل جزء من ذاتي يلومني لأنني على قيد الحياة بينما لايزال الأطفال يموتون من الجوع والقصف والبراميل المتفجرة. ففي ٢٠١٦، وبعد خمس سنوات على انطلاق الثورة، ما زال العالم ينظر إلينا كأرقام. لقد كنا أعدادا من الجثث ولكننا أصبحنا الآن أعدادا من اللاجئين.

نور كلزي من مواليد ١٩٨٨ حلب، سوريا. حاصلة على إجازة في الأدب الإنجليزي من جامعة حلب. مع بدء الثورة السورية أصبحت مصورة صحفية توثق الأحداث في سوريا لوكالة رويترز للأنباء. وفي ٢٠١٣ حازت على جائزة الشجاعة للصحفيات.

■ برلين مكان جميل، معقد وهائل، مليء بالاحتمالات والخيارات. أدرك ذلك تماما، لكن ما يزعجني حقا، هو أنه علي أن أزعم بأنني في وضع ممتاز، ما يدخلني في حالة سبات وبلادة، تظهر عوارضها في الامتناع عن فعل ما يبعث على البهجة، كما لو أن المكان ضيق، محدود ومستهلك إلى حد الإصابة بالقيء أحيانا.

„تكنيك البصلة"

الارتطام بالمنفى

ضحى حسن DOHA HASSAN

لم يعد الخروج من المنزل أمرا هيّنا. لقد حذرني من سبقني إلى هذه المدينة، لكني لم آخذ كلامهم على محمل الجد. لجأت إلى „تكنيك البصلة"، وهو آلية الدفاع التي خضعت لها مؤخرا. ارتديت كنزة صيفية، فوقها كنزة شتوية، سترة خفيفة، ومن ثم بنطال قطني أسود، فوقه بنطال جينز وسترة شتوية ثقيلة. وكل تلك الطبقات المتناقضة، من أجل شراء علبة سجائر، فشتاء هذه المدينة الحقيقي لم يبدأ بعد.

وبينما كنت أسير مسرعة في مواجهة الريح نحو غايتي، لمحت صديقا قديما. طأطأت رأسي في محاولة لتجاهله، فالصقيع يلفح وجهي، ولا مجال للأحاديث العابرة في الشارع، لكني لم أنجح في ذلك. اقترب مني، أنفه أحمر، شفتاه المبتسمتان ترتجفان، يضع يده على كتفي، يسألني عن الحال، أجيبه على خطى تلك الإجابات الهاربة المجبولة بإيجابية مصطنعة بأنني على خير ما يرام.

هذا النوع من الأجوبة غالبا ما يختصر جملة من الأحاديث العابرة. لكن الصديق يتجاهل إشاراتي ويمضي في شكواه موجها كلماته نحوي. أكمل حديثه „الغربة صعبة والمنفى لسه أصعب، ١٥ سنة كل ما فكر حالي تعودت، برجع من الصفر". أحدق في يده المتجمدة وهي تخترق كتفي، يبتسم مجددا، „شوي شوي بتتعودي، البرد هون مو متل البرد ببلادنا، أديه صرلك هون؟".



لوحة إرشادات مؤقتة في مركز «لاغيزو» لتسجيل اللاجئين في برلين.
Photo: Achim Wagner

المنفى الثاني

أكثر من نصف عام مضى على منفاي الثاني. تبدو تلك الأيام غريبة عن ذاكرتي القريبة، فالإحساس بالوقت لم يعد جليا. فجرت آلية الدفاع جملة من الإستراتيجيات النفسية التي لم أخترها بشكل واعٍ. بات النكران لكل ما هو مرتبط بـ „بلادنا"، ثقبا أسود في مقياسٍ الزمن عندي. الثقب الذي أحدثه انكماش خلايا مركز الإدراك المتعلق بالزمن في رأسي بعضها على بعض، بعد تعرضها لضغط الصدمات الكثيرة، ليصبح إدراكي للوقت مشوها تماما كما ذاكرتي.

التفت ذواتنا الراشدة نحو بعضها عند الارتطام الأول مع المنفى، لنصبح مجموعة كبيرة واحدة. نأكل، نتسكع ونعمل سوية. تشدّنا حاجة أصيلة وبدائية إلى الألفة والحنو في مكان غريب. يبدو أننا رأينا في أن قهر الشعور، الذي لا يطاق بالعجز والخوف في ساحة أكثر تعقيدا واتساعا مما اعتدنا عليه، يأتي عبر أن نكون جزءا من كل أكبر مألوف، ننغمر ونشارك فيه أكبر قدر المستطاع. وعلى هذا المنوال، أصبح لدينا المقهى الذي نعمل جميعا فيه، نشاطاتنا المشتركة التي نخطط لها كل صباح وأمسياتنا الطويلة، جميعنا معا، لا نفترق إلا ليلا حين نعود إلى وضعيتنا الأولى/ الجنينية وننام.

بعد مضي أسابيع قليلة من التجمع الاعتيادي لمجموعة من المهجرين قسريا، انسحب الفردان الأقدم من الروتين المشترك بشكل عفوي، جراء دخولهما في مرحلة التأقلم: مدرسة اللغة والبحث عن العمل. وبشكل تدريجي، فكك دافع التكيف المجموعة، ليصبح كل منا، فردا وحيدا في ماهيته، عليه أن يضع قدميه على الأرض، أن يعتمد على نفسه في كل شيء، أن يصبح كيانه الخاص منبع إحساسه بالأمان الشخصي، بدلا من روابطه الأصلية الضائعة أو تلك المستنسخة عنها.

رحلة إجبارية جديدة

الماضي ـ حيفا، الكويت، دمشق ومن بعدها بيروت رحيل قسري، واحد تلو الآخر. كنت قد كتبت عند رحيلي الأخير، „في ٨ نيسان ٢٠١٥، سأبدأ رحلة إجبارية جديدة إلى بلد أوروبي. في ذاك البلد الذي سأقصده أصدقاء كثر، معظمهم كانوا من قاطني لبنان الجدد. إذا غالبا ما سيحمل المكان بعضا من الألفة. لكنني أعلم تماما أن عملية المشابهة لن تنفع هناك، كل شيء سيكون مختلفا جدا. فهذه المرة سأغيب لمدة طويلة، أترقب بفضول ردود فعلي النفسية القادمة، وشكل الحالة الدفاعية التي سأمارسها هناك. يُقال إن الخسارات الجديدة تفضي إلى تغيّرات تفجّر المرحلة الكامنة وتدفع بالمشاعر القديمة المكبوتة للظهور؛ تلك المشاعر التي تشبه الأحاسيس الناتجة عن التخلي..". لا رغبة لدي في أن أكون هنا، في أن أكون هناك، ومع هذا، لا بد أن أرسي دعائم الاستقرار، لا بد أن أهدأ وأقترب رويدا رويدا من الواقع بكل تفاصيله. لكن كيف لي أن أهدأ؟. فالمكان والزمان موجودان الآن بسبب حضوري فيهما، تفاعلي اللحظي معهما. ولأنه لا بد لي من عيش الحاضر الموجود، علي تقبل أن المكان والزمان في الماضي لم يعودا موجودين، لم يعودا ملكي إلا في ثنايا الذاكرة الشخصية التي علينا ترتيبها „حسب الأولويات".

وهكذا يبدو „إنكار" الماضي والخروج من إطاره الزمني „شرطا" غير ضامن لمواجهة الحاضر بحسّ وجودي أكثر عقلانية وأقل قلقا، لكن هذا بالضبط ما يجعلني أبدو قلقة على الماضي أكثر من أي وقتٍ مضى.

هو درب نحو اتجاهين متعاكسين، متقابلين، نحو الماضي ونحو المستقبل بتواتر صارم، بينما يبقى الحاضر مترنحا بين الوقائع اليومية في بلاد المنفى واللجوء التي أتيناها من جهة والبلاد الأصلية التي تركناها مجبرين وأهلها من جهة أخرى. في بلاد اللجوء يبدو الإنسان معلقا بين سماء الماضي وأرض المستقبل. في منفانا هنا „دوما" حاضرٌ مزدوج الوجود. اليوم الجمعة، الساعة ٩ مساء، المدينة برلين، المناسبة عرس صديقين قديمين. خرجت من عزلتي وبخطوات مترددة توجهت نحو مكان الاحتفال. سيكون الكثير من الأصدقاء والمعارف القدامى هناك. إنها مواجهة مع الماضي في الحاضر. نزلت الدرجات القليلة نحوهم: وجوه أليفة، مبتسمة. ابتسمتُ، تراخت عضلات جسدي، خلعت كنزتي الشتوية، سترتي، وبحماس اجتماعي مفرط، تنقلت بينهم أحادثهم.

توقفت لبرهة محدقة في شاشة هاتفي: وجوه مألوفة. صورة أرسلها الأصدقاء في بيروت، جميعهم هناك مجتمعون. صعدت الدرج مسرعة، شعرت بقلبي ينكمش على نفسه. تصلني صورة أخرى، وجوه مألوفة أيضا، ووجه طفلة صغيرة، في ساعتها الأولى. أنجب صديقاي في دمشق طفلتهما. يناديني صديقي، سيلقي العريسان كلمتهما، وضعت هاتفي في جيبي، نزلت الدرج، وقفت بين الحشد، ابتسمنا جميعا. في طريقي إلى المنزل اجتاحني ذلك الإحساس الفجائي بالرضا الآني، أخيرا استطعت أن ابتسم، يبدو أن مناسبة كهذه: ملاقاة المألوف في حاضري كانت كافية لتجعلني، ولو لساعات قليلة، أرى في غير المألوف، الموجود، ملجأي من قلقي الدائم، ما أثار في داخلي توترا هائلا.

ما بعد الارتطام

برلين مكان جميل، معقد وهائل، مليء بالاحتمالات والخيارات. وفي تكراري لهذه الجملة إصرار على الاعتراف بإمكانية أن يحمل المنفى، رغم بيروقراطيته الجافة، جوانب لم أكن سأحصل عليها في „بلادي" التي تحكمها أنظمة ديكتاتورية وتعقيدات اجتماعية ودينية. اعترافي بذلك، جاء بعد خوضي المرحلة الأولى من ارتطامي بالمنفى. إذ يبدو أني أدركت أخيرا أن عملية كبت الماضي والحاضر الآخر، كما اليقين بوجودهما دون غيرهما، لا يمكن تسميتها بالدفاع من أجل البقاء، بل العكس تماما، هي آلية لاواعية باتجاه الهدم النفسي. الساعة ٦ صباحا، البرد يلفح جدران منزلي في برلين، أدخل إلى المطبخ، أدير الراديو القديم الذي تركته صاحبة المنزل للمرة الأولى. الصوت ينزلق ويختفي، لكنه يضفي بعضا من الألفة على المكان. أضع «الركوة» على الغاز، أجلس في مواجهة النافذة، أنظر إلى الساعة، الظلام مازال قابعا في الخارج حتى الآن، كما النعاس على جفني. أشعل سيجارة، أقف، أتحرك باتجاه الغاز، أحدق في الماء يغلي، أغمض عيني، أحمل «الركوة»، أضعها

جانبا، أسمع لحنا مألوفا، لحنا شبيها لما يسبق نشرات الأخبار. وبحركة لا إرادية أرفع الصوت، وأكمل تحضير قهوتي. يتحدث المذيع بصوت أجش „غوتن مورغن..(صباح الخير)„.

مـرت لحظات قبل أن أنتبه، وعلى الفور ودون وعـي مني، تحركت آلية الدفاع التي كتبت عن فشلها ليلة أمس. أتوجه إلى غرفة الجلوس، متجاهلة الصوت المنبعث من المطبخ كليا، أضع فنجاني على المكتب، بجوار كمبيوتري. أجلس أمامهما، أشد كتفيي قليلا إلى الوراء وأكتب: „مضى على وجودي في المنفى ١٠ أشهر، ١٠ أشهر فقط".

ضحى حسن صحفية ومصورة فلسطينية سورية من مواليد الكويت عام ١٩٨٥. تعمل حاليا في القناة الثانية في التلفزيون الألماني (ZDF) وتنشر في عدة صحف ومواقع إلكترونية. حازت على جائزة سمير قصير لحرية الصحافة عام ٢٠١٣.

■ „صباح الخير! معك السفارة الألمانية في أنقرة، نود الاستفسار عن بعض التفاصيل بشأن تأشيرة سفرك وتحديد موعد لإكمال بعض الإجراءات ...". بهذه العبارة التي اخترقت إحدى صباحاتي الإسطنبولية، تغير إيقاع الزمن وبدأت مجددا للمرة الثالثة خلال أقل من عام بوضع إستراتيجية لعيش قادم مبهم.

جدار برلين وحواجز دمشق

أحزم حقيبة الذاكرة وأهاجر بصمت

روشاك أحمد ROSHAK AHMAD

كنت في تلك اللحظة من الزمن قد نسيت تماما أني طلبت عون أصدقاء مقربين في البحث عن إمكانية للسفر إلى بلد أوروبي ما، فقد انعدمت فرص بقائي آمنة كصحفية وناشطة في دمشق. كان بحثا عن جدوى، بحثا عن مقعد جامعي أستعيض به عن مقعدي الذي أعلنت إضرابي وتنازلت عنه بعد ثلاث سنوات دراسية كانت قمة في الشغف والمتعة. كان بحثا عن منبر إعلامي غير مصاب بطاعة جنون عظمة السلطة لأمارس عملي منه مجددا.

الساعة الثامنة والنصف صباحا أجلس على مقعد أحمر. أحمل بيدي ورقة صغيرة عليها رقم انتظار محاولة البحث عن بنك تركي يقبل فتح حساب مصرفي لامرأة سورية لا تملك ثروة مغرية ولا عنوان إقامة مسجل. تسلمت المكالمة الهاتفية من السفارة، حملقت النظر وتمعنت في الرقم جيدا فاقدة القدرة على قراءة الأرقام، كل ما كان يجول في فكري كلمة (الجدوى).

حائرة، ممتنة، خائفة، متحمسة وسعيدة، أسير على جسر غلاطه في حي أمينونو في إسطنبول. أفكر أولا بالتزاماتي في تركيا، إذ بدأت منذ بضعة أشهر العمل لصالح برنامج تلفزيوني موجه للطفل السوري أنشئَ لمحاولة إنقاذ ما تبقى لدى أطفالنا من القدرة على البقاء في عوالمهم. كما أعمل على إنتاج فيلم وثائقي كنت قد صورته في دمشق. لكن احتمالات البقاء في تركيا ضئيلة. إذ لا أملك قانونيا سوى تأشيرة دخول سياحية صالحة لثلاثة أشهر قابلة للتجديد، لكن بشرط مغادرة الأراضي التركية ثم العودة إليها مجددا.

التأقلم والإنتاج في مجتمع جديد أسكن هنا في شقة تبرع بها لي أحد الأصدقاء فور وصولي. أبحث عن سبل الارتقاء بدوري كفرد ضمن مجتمع بشري ما، مصرة على إتمام دراستي الجامعية وإنتاج الفيلم. مشاريعي هذه هي الجدوى والحلم، إلا أنها تواجه الكثير من المعيقات والتحديات.

ألجأ إلى مكالمة هاتفية مع والديّ المقيمين في سوريا ليشاركاني اضطرابات وتناقضات شعوري. أخبرهما: „تخيفني فكرة احتواء حقيبة سفر واحدة على كل ما أملك أو ما تبقى لي بحوزتي في عمر يناهز الثامنة والعشرين



لاجيء في مركز «لاغيزو» بعد حصوله على وجبة طعام.
Photo: Achim Wagner

والانتقال للعيش في قارة أجهل شعبها والكثير عنها. لست في عمر مثالي للبدايات، إلا أن فكرة الولادة مجددا بظروف إنسانية وبعيدا عن خطر المخابرات السورية والموت تجذبني بشدة".

دار النقاش بيننا حول إمكانية مواصلتي لما بدأت هناك في ألمانيا. أبي وأمي كانا سعيدين جدا بالخبر، فهما من نوع يثق جدا بقدرة ابنتهما على الاستمرار وخلق الفرص للتأقلم والإنتاج حتى في مجتمع جديد.

حان موعد استلام التأشيرة خلال فترة قصيرة جدا. أسافر إلى أنقرة، فبناء على رغبة السفارة الألمانية علي أن أحمل معي تذكرة السفر للطيران إسطنبول - برلين. أسلم جواز سفري لموظف الاستقبال. كان علي الانتظار لبضع ساعات ثم العودة لاسترجاع الجواز والتأشيرة.

وداع الماضي

تتهيأ لي شوارع أنقرة وكأنها برلين، مدينة كبيرة لا أهل لي فيها ولا أصدقاء. علي تعلم قضاء الوقت فيها وحيدة. أجلس في إحدى المقاهي القريبة ولا أدري لماذا توجه تفكيري إلى جدار برلين، هذا الجدار الذي لم أشاهده سابقا، لكن فكرته تثير الرعب في قلبي. كانت المقاربة في رأسي تدور حول جدار فاصل في برلين مع حواجز ونقاط تفتيش في دمشق. تشغلني منذ سنتين تنبؤاتي المتناقضة حول طبيعة المجتمع والعلاقات ضمنه بعد زوال الفصل القسري، أعتقد أن المجتمع البرليني سيرسم لي تكهنات مختلفة من واقع تجربته المعاشة.

أعود أدراجي لاستلام التأشيرة، حتى تلك اللحظة لم أكن قد صدقت أني سأحظى فعلا بإمكانية السفر إلى ألمانيا. أستلم الجواز مع التأشيرة. أدقق في كل الكلمات المكتوبة ولا يعنيني منها إلا اسمي وكلمة «فيزا». يسلمني السيد عبد الرؤوف، موظف السفارة، جواز سفري ويخبرني بأن مجموعة من الأشخاص ستتولى مهمة استقبالي من المطار ونقلي إلى مسكن. كما كان قد سألني سابقا عن إمكانية وجود أحد المعارف في برلين يتطوع لاستقبالي في شقته إذ تحتاج إجراءات تأمين سكن خاص أسبوع أو أسبوعين. قمت بالفعل بسؤال صديق تعرفت إليه خلال تدريب صحفي ورحب بالفكرة.

في الخارج قرب مدخل بناء السفارة توجد مقاعد مخصصة للانتظار، لم يعد لدي ما أنتظره هنا، لكني سمحت لنفسي بالجلوس قليلا. أتأمل كلمة «فيزا» مجددا ويبدأ دماغي ببث شريط مصور في رأسي يروي كل ما عشته، أبي وأمي وإخوتي، أقاربي حتى من لست على اتصال وطيد معهم، طفولتي، مدرستي، الجامعة، عملي، بيتي، الجيران، سائقي التاكسي، الثورة، الشهداء، المعتقلين.. شريط لخص كل الذاكرة وكأني أودع كل الماضي، وكأني أنتقل إلى عالم مختلف وبعيد جدا، شريط مصور يصيب بشيء يشبه دوار البحر. كان علي حزم حقيبة الذاكرة جيدا والاستعداد نفسيا للهجرة، وهي تجربة أجهل عنها باستثناء ما قرأته عنها في الأدب.

الرحيل بصمت

قبل موعد السفر بساعة واحدة فقط أبدأ بحزم حقيبة ملابسي، لم أكن قد أخبرت أصدقائي في تركيا بهذا الشأن. لم أشأ أن يقيم لي أحد حفل وداع ولم أرغب في وداع أحد، فلست قادرة على إخبارهم بأني نجوت من الشتات وسأبني لنفسي مجتمعا جديدا حيث أحيا بأمان. وأعلم أن غالب من سأودعهم يتمنى ذلك لنفسه وعائلته أيضا لكن ما من طريقة. لذا قررت الرحيل بصمت.

في مطار أتاتورك أجري مكالمتي الهاتفية الأخيرة مع أمي وأبي. فبالرغم من وجودهم في سوريا إلا أن السوري في تركيا يعتبر نفسه وكأنه مازال في الداخل. تقول لي أمي: „أنت لبوتي تستحقين الحياة في بلد يحترم حقوق الفرد وحرياته، أنا سعيدة لأجلك، كل ما كنت أتمناه هو أن أحظى باحتضانك وتقبيلك قبل مغادرتك!". يبقى صوتها الدافئ الحزين في رأسي حتى وصولي إلى مطار تيغل في برلين. هنا ما من أحد بانتظاري كما أخبرتني السفارة. وصديقي صاحب العنوان الاحتياطي اضطر للسفر إلى خارج ألمانيا قبل وصولي. لكن لحسن الحظ أن جاء أحد الشبان السوريين، الذين تعرفت عليهم عن طريق الفيسبوك، إلى المطار ليلقي علي تحية الوصول، وكأنه تنبأ بأن لا أحد سيأتي من قبل السفارة أو الخارجية إلى المطار.

عاطلة عن العمل

استضافني الشاب في شقته الصغيرة وتواصل مع إحدى المنظمات التي تتولى شؤون الوافدين السوريين الجدد، ليصطحبوني إلى الدوائر الرسمية والبدء بالمعاملات المطلوبة. إذ لم تكن لدي أدنى فكرة عن البيروقراطية الألمانية وهذه المعاملات التي كانت بمثابة المفاجأة لي.

أما المفاجأة الكبرى فكانت ما يدعى بمكتب العمل أو مركز العمل Jobcenter. فمن جهة لم يكن لدي أي تصور عن تكفل دولة ما في عالمنا بمصاريف الحياة لمواطن سوري لحظة وصوله بما يكفي فعلا لمستوى معيشي جيد، دون ضمانات مسبقة أو تمييز على أي أساس، أما من جهة ثانية كنت قد خططت لوسائل تعينني على جني المال والاعتماد على نفسي.

فقد تم اعتباري منذ لحظة دخول الأراضي الألمانية شخصا عاطلا عن العمل يتلقى المساعدات من الدولة ما كان مربكا لي. وحين أخبرتهم عن مشاريعي كان الجواب: صناعة الأفلام لا يعتبر مصدر دخل بإمكانك العثور على ساعات فراغ أيام عطلة الأسبوع للعمل على مشروعك أما ضمن الأسبوع لديك خلال الأشهر الستة الأولى التزام بدراسة اللغة من ثم البحث عن عمل حقيقي!.

استضافني صديقي السوري لمدة أسبوعين في شقته، قمت خلال تلك الفترة بالتواصل مع السفارة لمشاركتهم ما حدث،

تلقيت اتصالا هاتفيا منهم خلال يومين واعتذر السيد عبد الرؤوف مؤكدا أن ما حصل سببه خطأ في المواعيد من قبل الجهة المسؤولة في برلين، وأنهم سيقومون بالاتصال خلال أسبوع.

لم أحصل بعدها على أي جواب أو رد، لكن حصلت بعد فترة من خلال المنظمة على غرفة في إحدى مراكز استقبال اللاجئين حتى عثوري على شقة أو غرفة في بيت مشترك استأجرها.

بعد أسبوعين من اليوم تنتهي إقامتي الصالحة لمدة سنتين في ألمانيا، لم أتمكن من إنجاز الفيلم، وبرنامج الأطفال توقف عن البث بقرار من إدارة المحطة التلفزيونية منذ أكثر من عام، لكنني فهمت أن الشعوب قادرة على إسقاط جدار الفصل والحواجز الأمنية فيما بينها على مستوى العلاقات الإنسانية حين سقوط الأنظمة القائمة على فرضها.

لقد وصل الكثير من أصدقائي الذين لم أودعهم هنا عن طريق البحر، وحصلت على مجتمع جديد من الأصدقاء من مختلف بلدان العالم، كما أنهيت بنجاح كل مراحل دراسة اللغة وتشبثت بنجاح برواية أمي بأنني لبوة.

روشاك أحمد من مواليد القامشلي عام ١٩٨٦. صحافية ومصورة تقيم حاليا في برلين. بدأت منذ ٢٠١١ بالكتابة وإنتاج وثائقيات وتقارير مصورة عن الحراك الشعبي في سوريا تحت أسماء مستعارة لعدد من المؤسسات المحلية والعالمية منها مؤسسة دويتشه فيله الألمانية.

الناشر وهيئة التحرير

مجلة «فكر وفن»
عدد ١٠٥، السنة الرابعة والخمسون ٢٠١٦

الناشر: معهد غوته

عنوان الناشر:
Goethe-Institut e.V.
Dachauer Str. 122
80637 München, Germany

إدارة التحرير: شتيفان فايدنر
هيئة التحرير: شتيفان فايدنر، أحمد حسو

عنوان إدارة التحرير:
Stefan Weidner
Art & Thought / Fikrun wa Fann
Prälat-Otto-Müller-Platz 6
D-50670 Köln, Germany

المراجعة اللغوية:
أحمد فاروق، أحمد حسو

الإخراج الفني: ميشائيل كروب، بون

الديجتال والصف والإخراج الفني:
م. أمين المهتدي
المهتدي للتصميم والنشر، برلين
aminmohtadi@hotmail.com

ISSN 0015-0932

فكر وفن» مجلة ثقافية تصدر مرتين في السنة وتوزع مجانا.
المقالات المنشورة في العدد لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر هيئة التحرير ومعهد غوته.

البريد الإلكتروني:
fikrun@goethe.de

الإنترنت:
www.goethe.de/fikrun

صورة غلاف العدد: خيام للاجئين في الصباح الباكر بالقرب من الحدود اليونانية المقدونية في إيدوميني، اليونان، مارس/آذار ٢٠١٦.
Photo: Kai Wiedenhöfer © Goethe-Institut